مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨
مكتبة الأسرة

اليهود

د. جمال حمدان

الأعمال الفكرية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اليهود

انثروبولوجيا

اليهود

انثروبولوجيا

بقلم: د. جمال حمدان

تقديم: عبدالوهاب المسيرى



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

اليهود

انثروبولوجيا

د. جمال حمدان

الغلاف
للفنان حلمى التونى

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

مقدمة

بقلم د. عبدالوهاب المسيرى

اليهود انثروبولوچيا ، أى «اليهود من الناحية الانثروبولوچية» هو عنوان الكتيب الذى بين أيدينا، ألفه هذا العبقرى «الفلتة» ، جمال حمدان ، ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيرا من أفكاره وآرائه ولا يمكن فهمه إلا فى إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية.

وهذا الكتيب، مثل كل كتابات جمال حمدان ، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمة، أى الدراسة التى يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ولا تتسم بأى شئ سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف

---

* لتقليل عدد الهوامش سنورد أرقام الصفحات فى النص نفسه بعد عنوان الكتاب «إلا كتاب اليهود انثروبولوچيا فسنكتفى بالإشارة إلى رقم الصفحة» .

١ – استراتيچية الاستعمار والتحرير (دار الهلال) ١٩٦٨ .

٢– شخصية مصر (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٥ .

٣ – العالم الإسلامى المعاصر (دار الهلال) ١٩٩٣ .

٤ – ثلاثية حمدان : د. عمر الفاروق «دار الهلال» ١٩٩٥ ، اقتبسنا من هذا الكتاب بعض أقوال جمال حمدان التى وردت فى الطبعة الموسعة لكتاب شخصية مصر .

والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعنات علمية موضوعية) ، تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء، والهدف عادة من مثل هذه الكتابات (التى يقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثا» عن أى شئ) هو زيادة عدد الدراسات التى تضمها السيرة العلمية للاكاديمى صاحب الدراسة، فتتم ترقيته ، فالصالح للنشر هو عادة ما يؤهل للترقية ، قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام ، وصاحب «آلبحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر ، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب، ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التى تقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شئ ليزداد لمعانا وتألقا ، إلى أن يعين رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشئ الأكاديمى، يتحرك فى عالم خال من أي هموم إنسانية حقيقية - عالم خال من نبض الحياة : رمادية كالحة هى هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة .

النموذج المعلوماتي التراكمي

كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف» لا يكتب إلا انطلاقا من لحظة معاناة وكشف، وهو لا شك يتبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة ، ولكن الآليات هى مجرد آليات، والوسائل لا تتحول أبدا إلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل، والهدف يظل دائما هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل .

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هى دراسات إشكالية ، محاولة للإجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة فى مشروع فكرى واحد، محوره مصر ، فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلا للأفكار مثل عدد لا يستهان به ممن يسمون بالمفكرين فى بلادنا ، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة، عادة من الغرب «أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب .. لا شئ سواه ، وهى النظرة الاستعمارية التي سادت طويلا، والتى تركز على أن الدنيا هى Euro - Centric والآن على أوربا وأمريكا معا Atlanto Centric أو الغرب بعامة west Centric (ثلاثية حمدان ، ص

٢٣) صاحب الفكر هو إنسان قد طور منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي (فهي تعبر عن قلقه وآماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد - رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل أفكارا متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة. وما يحدث في كثير من الدراسات الاكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفي الكامن وراءها ، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته ، فمهمتهم هي النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) - نقل كل شئ بأمانة شديدة وحياد أشد ، وموضعية متلقية هي في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية، والقدرة على الاجتهاد. في هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب، ويختفي المنظور النقدي، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنبا إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهري منها والهامشي. ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيرا عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذي نبعت منه. ولذا فمثل هذه الدراسات قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسيا (كما يقول جمال حمدان

ص٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء فى شركات نقل الأفكار التى لا تختلف كثيرا عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع .

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التى استشرت تماما فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمى من خلالها (استبيانات – جداول – تحليل سطحى للمضمون – استطلاع رأى – أرقام) ولا شك أن غياب المشروع الحضارى المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل ، ويصبح التلقى المهزوم والاذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلا لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته ، وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا ، ومن هنا التلقين، والدروس الخصوصية التى لا تعلم الطالب شيئا، إذ أن المهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة اجتياز الامتحانات .

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع ، تدور فى إطار الموضوعية المتلقية، السلبية ، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماما فى الحقائق والوقائع والأفكار المتناثرة ، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد

وكأنها أشياء مرصوصة ، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص. وكما يقول جمال حمدان : « نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه : فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة .. الخ ، وفى هذا الإطار التجريدى الضيق (أى الاختزالى) أو المتعجل غير المتأنى .. تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، وتبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا (ص٦) .

ثنائية تكاملية :

وبدلا من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية، يقترح جمال حمدان «دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا » (ص ٦) ، بدلا من الاختزال والتركيب؛ وبدلا من التلقى الإبداع ؛ وبدلا من التفاصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية ، تبدأ هذه الرؤية بتعريف (أو إعادة تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين ، أن البحث المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها) . فالجغرافيا «هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة) » هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام ، يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة ، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر ليتعامل مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هو التعرف على «شخصية الأقاليم» يقول ذلك وهو يعرف تماما أنه قد ولج عالما جديدا مختلفا ، «فالشخصية الإقليمية» شئ أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف «عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة » .

عالم الكم هو عالم الأشباح التى لا بدن لها ولا قوام ولا روح . ولأنها لا بدن لها نجدها تهوم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها . وهى أيضا لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه ، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى ، ولكن تميز الجسد ليس بدرجة تميز الروح نفسها، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادى ينتمى لعالم المادة ، وقوانين الحركة ، بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح فيه ، التى تصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملبس ومأكل وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم الحضارة الإنسانية بثرائها وخصوصيتها .

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجينة الكم ، فهى لا تقبع قط فى الآن وهنا وحسب، وإنما تتجاوزهما، «فهى تترامى بعيدا عبر الماضى وخلال التاريخ. لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية) (شخصية مصر، ص ٣) .

ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان : فهو يرفض أحادية البعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته ، وكما يقول : «حق لنا أن

نبقى تفاصيل التفاصيل .. ولكن أحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه ، وإنما علينا أن نتجاوزها ، نقفز منها فوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات .. وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية، لا غنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية الواسعة الأفق» (ثلاثية حمدان ، ص٢٩) ، ولكن الثنائية التى يدعو لها ليس ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية : كم يتكامل مع كيف - جغرافيا تتكامل مع تاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام ، والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يؤدى إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يؤدى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى . وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف - تاريخ - زمان - روح) ، وكما يقول جمال حمدان : «البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء ، ولكنها تنطق من خلال الإنسان ، وربما تكون الجغرافيا صماء، لكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها ، ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الإنسان على الأرض. بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان » (شخصية مصر ، ص ٤) .

بيئة خرساء وجغرافيا صماء، ها هو عالم الواحدية المادية

و(الدراسات الموضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل
إنسان ينطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال
حمدان) والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو
يلقى بظله عليها - على الأرض ، ولكن مادية العالم وموضوعيته لا
يمكن للإنسان أن يبتلعهما ، ولذا فالأرض تلقى هى الأخرى بظلالها .
على الزمان الإنسانى .

المحصلات الرياضية

هذه الثنائية الأساسية هى التى جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى والذى قوض دعائم الإبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكر مادى حتمى ممل يقضى على الإنسان – يلقى بظلاله الكثيفة الكئيبة عليه حتى يخفيه تماما، أعنى فكرة وحدة العلوم التى أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم ، وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافا فى الجوهر والنوع والكيف، وإنما هو اختلاف فى التفاصيل والدرجة والكم، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان ، ولذا فلابد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسلوك الإنسان والنمل. قد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحة (فمن منا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن فى منطلقاتهم المعرفية. يرفض جمال حمدان هذا المنطق المادى المصمت المعادى للإنسان : «فالجغرافيا الكاملة الكامنة لا تتحقق فى شئ كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية .. والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة

يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضى والإحصاء، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساسا .. على مادة علمية موضوعية بحتة . إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى» وهو لا يجد فى هذه الثنائية أى تعارض، فالجغرافيا «فلسفة المكان.. فلسفة عملية واقعية .. ترتفع برأسها فوق التاريخ .. وتظل أقدامها راسخة فى الأرض » . وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدرا من التكاملية – وهو سيد مثل هذه العبارات – يقول حمدان : «فلسفة تحلق بقدر ما تحدق» الجغرافيا فى نهاية الأمر «علم وفن وفلسفة فى ذات الوقت : علم بمادتها ، فن بمعالجتها ، فلسفة بنظراتها» كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى) فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة (شخصية مصر ، ص ٦) وما بين الرص التراكمى والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقى لتركه الجامعة ، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ فى التصاعد (حتى وصل مؤخرا إلى أبعاد لا يمكن تخيلها) . لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيئ المطبق، وبأن عالم الكم والأشباح يزداد اقترابا واتساعا فقرر أن يحمى علمه وابداعه ، لأنه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا إبداع – وإنما محصلات

رياضية صماء خرساء لا تقول شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ثمة نقطة ساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهي أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعى الحتمى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادى واحد. فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التى تشبه الهامبورجر أو النظام العالمى الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة إلى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم، كل الناس فيه سواسية كأسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محليا ، جمال حمدان لا يطيق هذا، فعالمه عالم إنسانى ثرى جميل مورق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة ، فهو يرفض الوحدة العضوية المصمتة التى تدور فى إطار الرؤى المادية وتشيئ الظواهر ، وتجعلها كلا متجانسا أملس، بل إنه يؤكد البعد الإنسانى فى مبدأ الوحدة ذاته : «إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى ، فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس، أى وحدة القومية بمعنى

تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة .. ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية فى أي مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى، فأي جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ «التنوع فى الوحدة» أو «الوحدة فى التنوع» (شخصية مصر ، ص ١٣) .

سيدة الحلول الوسطى :

هذا المنهج يتبدى تماما فى رؤيته لمصر، فهى نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (ائتلافا واختلافا) الموضع والموقع ، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية ، هى فلتة ولكنها ليست وثنا، ولم يكن هو عاشق وثنى لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد فى محراب مصر، ولذا فهو يرفض السقوط فى ميتافيزيقا المكان المصرى (أو أى مكان آخر) فيقول : «كثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة» (شخصية مصر ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محبا لمصر، والحب «أسرار» كما يعرف كل من عرف الحب الحق، وأن تبوح به هو فى حكم المحال، وإن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية ، ولكن العالم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماما ، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقا أنه لن يكشفه، ولن يسويه وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والإفصاح لن يجففا بحر الحب وعيون المحبة! ولذا فالعلم الذى سيؤسسه ليس علما رصديا ترشيحيا برانيا - نقتل الفراشة ثم

ندرسها ونفسرها ، أو كما يقول : «إن الدراسة الإقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات، غير أنها قل أن تنقبض على روح المكان أو تسجد العبقرية بإحكام، إنها تشرح الإقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحى بروح الإقليم » «ثلاثية حمدان ص ٢٩» تزهقه تماما، وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علم مبنى على الحب، علم يحلق ويحدق، يتحرك من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل » «ثلاثية حمدان ص ٢٩» ، يدرك السطح البرانى بتفاصيله والعمق الجوانى بأبعاده ، يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس ، ولذا لا ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا، يكفى أن نقول تجانسا نسبيا ، وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية (التى يدعيها العنصريون البيولوچيون الماديون لأنفسهم) فمن الواضح أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت فى شرايينها .. وليس من الدقة العلمية فى شئ أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله، فليس هناك أطر ثابتة إلى هذا الحد كأنها أقفاص حديدية (شخصية مصر ، ص٣٢).

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق. عالم الأشباح إياه ، ومصر التى يحبها ليست شيئا ماديا، جغرافيا محضا، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان ، هى مجموعة من الثنائيات التى لا تذوب ولا تختزل فى كل واحدى مصمت – «هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان

دون أن تكون هناك تماما، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضا إلى اسيا بالتاريخ .. وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم .. وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى » تجعَلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمة نصفا» ! (شخصية مصر ، ص ٨-٩) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية :

وسيدة الحلول الوسطى هذه فرعونية بالجد .. عربية بالأب» (شخصية مصر،ص ٨) ولكنها ثنائية تكاملية ، وليست ازدواجية فالأب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك غير أن العرب هنا وقد غيروا ثقافة مصر، هم الأب الاجتماعى فى الدرجة الأولى ، وليسوا «الأب البيولوچى» إلا فى الدرجة الثانية (شخصية مصر ، ص ٢١٣) فالتعريب والإسلام .. هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافي والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا ، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللا مادى (شخصية مصر ، ص ٢٠٨) وبالنسبة لجمال حمدان يعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية .. «فبعد التعريب.. أصبحت (مصر) جزءا لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا إقليما أو رأسا فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية »(شخصية مصر ،ص٢٠٨) .

والاستعارات أو الصور المجازية التى يستخدمها جمال حمدان تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية» فنحن نحب الجد ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمى إليه، ونسير معه خاصة إذا كان الأب العربى هو «آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية»، خاصة أن الجد قد ابتعد كثيرا ، فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح

الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر ، ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الضحارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية » (شخصية مصر ، ص ٢٠٧) ، ولذا يحذر جمال حمدان دعاة «الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والأشورية) فالمقصود من هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة» (شخصية مصر، ص ٢١٤) . كما يحذر من دعاة الاستمرارية فى الكيان المصرى «لا ليبرز أصالة ما ، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع ، وبالتالى ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها» (شخصية مصر ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

ومصر التى فى خاطره وفى فمه ، وسيدة الحلول الوسطى ، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الافريقى (شخصية مصر ،ص ٩) وهو فى كتابات أخرى يشير إلى إفريقيا واسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة ، ثم هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر : بقية العالم .

ولنبدأ بالدائرة الأولى أى الدائرة العربية «الاطار العربى (حسب

تصور حمدان) ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته» (شخصية مصر ، ص ١٧٨) ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة : «فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك ، وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد» وهو «لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه (شخصية مصر ، ١٣ ، ١٤).

ولنتوقف هنا قليلا لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ، جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يولية فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر ، ووضَّح الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى ، ونظرا للصراع العربى الاسرائيلى باعتباره صراعا سياسيا مصيريا حضاريا له أبعاد دينية، فابتعد به عن العنصرية . ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يولية لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانات ، لأنها كانت ثورة برجماتية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة، فضاع ما ضاع ، وجلس فيلسوفنا الحزين ينظر لها ، بينما كانت أمانة

الدعوة والفكر «الاشتراكى» تمتلىء بموظفين قادرين علي إصدار أى بيان يطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بينت الأيام) وبذلك وضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

ولا تختلف الوحدة الإسلامية فى منظور حمدان كثيرا عن الوحدة العربية، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التى يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية . بدلا من هذا يطرح مفهوما «صحيا وصحيحا» للوحدة الإسلامية ، «توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التى ورثها عن ماض فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة .. تلك جميعا هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسيا .. إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان» . بل يمكن أن نضيف : وحدة مصير ، إلا أنها ليست دستورية ، فى كلمة أخرى : وحدة فكرية لا دستورية،

أو هى كما قال عبدالناصر فى دوائره الثلاث «دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة .. » فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والأفريقية وحدة جوار ، فالإسلامية وحدة عقيدة (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٦) .

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية / الجغرافية ، الزمانية / المكانية ، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقترب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا ؟ وأين يقع اليهود ؟ يعبر جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجى المصرى كله فى إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الاستراتيچية على النحو التالى :

– من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

– من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء.

– من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير .

– من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى .

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصرى» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٢٨) إن موقع مصر «مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل» خاصة وأنها «تريد أن ترث دور القناة نهائيا، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى » ، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيچى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء – تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو» (ثلاثية حمدان ، ٢٢٨).

ثم ننتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر «محكوما عليها بالعروبة» (بعد أن دخل الجد الفرعونى المتحف) ، فهى «لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها ، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٤) ، بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين فى منتصفه، ولكن «بدلا من فلسطين التى توحد شطريه (والتى تمثل) نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التى تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها» فهى «اسفنجية غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير » (استراتيجية الاستعمار والتحرير،١٧٥) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الثانية، أى الدائرة الإسلامية . سنكتشف «إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى، لا جغرافيا فحسب، بل ودينيا أولا وقبل كل شئ، إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحيا وموقعا ، فإن فلسطين – كمصر فى هذا الصدد – هى أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعيا ، وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه – ما بين الصين شرقا والأطلسى غربا وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب أفريقيا جنوبا ، إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضا ودينا » «العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٨) .

ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية «فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب» وإنما «يمتد من النيل إلى الفرات شرقا بغرب، ومن الإسكندرية حتى المدينة شمالا بجنوب ، وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات ، ويرادف قلب العالم العربى وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥) ، ولذا «فإن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية ، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام ، وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة» فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٦ - ٢١٧) .

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الافريقية الآسيوية وهناك أيضا سنجد إسرائيل «أخطر مناطق العدوانية الامبريالية فى العالم الثالث .. أخطر مناطق التسليح الغربى .. ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان» ويضع جمال حمدان ما يسميه» معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين / إسرائيل .

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها ، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامي والعالم الآسيوى / الأفريقى والتشكيل الاستعمارى الغربى. وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة الثانية ، يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١١٩) ، أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة هى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا، ورأس جسر ثابت استراتيچيا ، ووكيل عام اقتصاديا وعميل خاص احتكاريا (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٥) ، ولذا فإن الصهيونية «اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحد يواجهه العالم الإسلامى المعاصر ، تماما كما يواجهه العالم العربىَ : أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربى الحديث التى غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الاستراتيچية أو الاستغلالية ، إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن

يكن سرطان العالم العربى ، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقا بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ – الاستعمار الصيهونى «استعمار عميل» ، «فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا» (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٦) : «ومن هنا التقت الامبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار، وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانه لبقائه» (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١٦٨) .

٢ – إسرائيل استعمار سكنى فى الدرجة الأولى ، فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى

بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ. ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا ، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله (استراتيچية الاستعمار والتحرير،ص ١٧٢).

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أن ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكنى :

أ) «إذا صح أن نميز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى استراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى» (استراتيچية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢) .

ب) « تتميز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج، ثم تضيف الأسوأ منه. هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من إبادة الجنس، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسى، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، (ص ١٧٢ . ١٧٣).

جـ) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية فقد اغتصبت الارض وما عليها من ممتلكات، فالاستعمار الاستيطانى الاسرائيلى عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره استراتيجية الاستعمار والتحرير(ص ١٧٤) . وإسرائيل بهذا كله أعلى - أم تقول أدنى ؟ مراحل الاستعمار السكنى ، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال والإجتثاث والإبادة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير (ص١٧٣) .

٤ - إسرائيل استعمار توسعى اساسا، وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة ومتداولة، ومن النيل إلى الفرات ارضك يا إسرائيل Erets Israel هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف اسرائيل الكبرى ان تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة. ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطان فى أن واحد، إزاء عدوان أنى واقع وعدوان سيقع فى أى وقت (إستراتيجية الاستعمار والتحرير (ص ١٧٤).

٥ - أدى كل هذا الى عسكرة المجتمع الاسرائيلى تماما، فقد تعين فى حالة اسرائيل ، أن تصبح حدودها هى جيوشها. وجيوشها هى حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير (ص ١٧٤). كما أن

وجـودهـا غـيـر الشـرعى رهن من البـداية الى النهـاية بالقـوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى ، وهذا تدركـه جـيـداً - إلا بالدم والحديد والنار. ولهـذا فـهـى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها و حماتها وأمن اسرائيل هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقد تحدد فى أن تصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشـها ، وهو ما يعبر عنه بـ عسكرة اسرائيل وأنها استعمار اقتصادى فهذا اساسى فى كيانها منذ أن أغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات (استراتيجية الاستعمار والتحرير (ص ١٧٣).

متحف الأجناس .

اسرائيل كما اسلفنا استعمار سكاني مبني على نقل السكان (اليهود) من الخارج الى فلسطين ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية اساسية ومن هنا اليهود انثروبولوجيا. وجمال حمدان - كما اسلفنا يرفض وحدة العلوم لذا فعلوم الانسان مختلفة عن علوم الحيوان والحشرات والأشياء.. ولذا فهو لا يشيىء ما هو إنسانى أى لا يراه باعتباره شيئا أى لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها . كما أنه لم يشيىء مصر أو العالم العربي والإسلامى ولم يشيىء الجغرافيا فى علم طبيعي ولم يشيىء اسرائيل ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية، فهو أيضا لا يشيىء اليهود .

لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية ولا هم شياطين ملاعين قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود. فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم مقصور عليهم سمى الدراسات اليهودية ، وهى تسمية متحيزة لأقصى حد تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة كتلة عضوية من الملائكة او الشياطين. يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود ، كما يضع أى ظاهرة أخرى، فى النقطة التى يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع

الجزء. فالهيود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاسيتطانية الإحلالية العامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم: العودة اليهودية الى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى عودة.. الى فلسطين بالاغتصاب ، هو غزو عدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم. تمثل جسما غريبا دخيلا مفروضا على الوجود العربى، ابدا غير قابل للامتصاص.. فهم ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل اخلاط الجناس فى العالم كما يدرك أى انثروبولوجى (ص١٧) إن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أى أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة (ص ١٨١).

هذه هى الصورة العامة، ولكن هناك دائما الخاص، وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط (ص١٨١) . ويعد أن يبين هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص الى أن اليهود اليوم إنما هم أقارب من الامريكيين بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة لحما ودما وإن اختلف الدين. ومن هنا فإن اليهود في اوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة اصحاب البيت، وإنما هم من صميم اصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (ص ١٨٢) .

هذه هي النتيجة النهائية ، ولكنه لا يصل اليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال لى عنق الحقائق، او من خلال انصاف الحقائق التى يسمونها الأكاذيب الحقيقية، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة ، أنظر - على سبيل المثال - دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء او الخلط ص ١٤٢-١٤٦. يعرض حمدان للقضية من خلال بناء منطقى واضح يختبره دائما من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة. وهو فى دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها، ففى اقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير الى تاريخ الصراع بين الدولتين العبرانيتين (٥٨-٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية الذين يتناولهم فى عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم (ص ٦٣) وتوزيعهم (ص ١٠٤) واعدادهم (ص ١٠٥) وخروجهم من العالم العربى .

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها فى سياق العلم العام . فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التى يوجدون فيها ولا يوجد أى داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر . كما أن اسرائيل استعمار استيطانى احلالى شأنه شأن أى استعمار استيطانى إحلالى يمكن دراسته داخل إطار

حركيات تاريخ الاستعمار الغربى. فاليهود هم ايضا بشر ، يمكن دراستهم داخل إطار حركيات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر ، وهو بذلك يسترجع لهم انسانيتهم التى استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود، على سبيل المثال على أنهم فى حالة شتات دائمة ، يهيمون على وجوههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج فى مجتمعاتهم . لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة، ويبين أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهيلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية . لايمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدولة المكابية للتصدى للنزعة الهيلينية، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية وانتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهيلينى البيزنطى. هذا الانتشار لم يكن تعبيرا عن شتات أبدى وتجوال لا نهاية له ، وإنما هو استجابة انسانية عادية لاوضاع حضارية اجتماعية ولذا نجد أن فى مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود (ص ٦٦) ، هذا قبل سقوط الهيكل ، أى أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت / انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود فى الحضارة الإغريقية ، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

من المعلومات المتناثرة إلى الأنماط المتكررة .

لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصا ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء، فهو دائم البحث عن انماط ذات معنى ومغزى كامنة فى التفاصيل وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء ٣١ وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة، فبعد أن يأتى بحشد هائل من المعلومات عن اعداد اليهود فى العالم وتوزيعهم ، يطرح السؤال التالى : ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات وما هى ملامح الصورة العامة. الإجابة هى أن اوربا عمليا هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا، وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة اقطارا واحجاما من الشرق إلى الغرب: دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب اوربا ومركزها الراين وفرانكفورت وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك (ص ٩٤) .

هذا هو الإطار العام، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها وقبلها ، واليهود في الاطار الكوكبى هى ظاهرة قزمية (ص ٩٦) وانتشار اليهود فى

انحاء العالم ليس انتشارا كميا او تمددا افقيا وإنمايتبع هو الآخر نمطا محددا فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يلاحظ اتجاههم نحو سواحل المحيط الاطلسى شرقية وغربية. فإذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى امريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال افريقيا تقليدنا فى المغرب لجازلنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطىء ذلك المحيط. بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم (ص ١٠٩) .

وينتقل حمدان من أنماط التوزيع فى العالم على وجه العموم الى انماط التوزيع داخل كل قطر، فيبين أن اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن وسكان مدن كبرى بالدقة ثم هم الى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو أثنين إلى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولا تتبلور فى وقتنا هذا. والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل اوضحها فى الذهن المثال الأمريكى (ص ١٠٩) وأرجو أن يتأمل القارىء أبناء هذه المقطوعة هم سكان مدن نعم ولكنها ليست اى مدن وإنما مدن كبرى وهى ليست مدن كبرى وحسب وإنما عواصم ثم يضع يدنا على النمط الذى يربط التعميم المجرد بالتفاصيل المتعينة ويهود دولة

ما هم عادة يهود العاصمة ومدينة او اثنتين الى جوارها . وهكذا يكتسب النمط الوانه وتفاصيله ثم تنتهى المقطوعة بالاشارة الى تاريخ اليهود قديما وحديثا وأخيرا الى المثال الأمريكي المتعين . يبين حمدان أن اليهود يقيمون أساسا فى نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن اخرى. ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التى يسميها (بروح الدعابة التي لا تفارقه . رغم نبرته الحادة) تل أبيب الكبرى، بل إنها إسرائيل الكبرى ثم يعود الى النمط مرة أخرى فيقول : إن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع احجامها ، فهم أقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الارجح شيكاغو ، بينما لا وزن لهم مثلا فى بوسطن (ص ١١٢) . ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل : هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطى قارئه عشرات الامثلة: تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدنى، أى أنه يختبر بنفسه النمط العام الذى طرحه بالاشارة الى كثير من القرائن والتفاصيل ليبين مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التى يستحقها .

ثم يصل حمدان الى فلسطين دائما فلسطين مركز اهتمامه وسر انشغاله باليهود : حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون الى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥.٩٪ من سكان اسرائيل يتكدسون فى المدن . والمؤكد ان هذه النسبة قد

زادت منذ ذلك الوقت ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية Urbanism ولكنها ببساطة حثالة مدن العالم انصبت واستقطبت فى دولة (ص ١١٣) . قد تتفق معه وقد تختلف ، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه . قد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأنماط متعسفة قليلاً أو كثيراً ، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم ، قد تقول أن استخدام عبارة «حثالة مدن» انحراف عن المنهج العلمى المحايد أو البارد ، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عيناك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول ، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض عن نفسك غبار التلقى ، وها أنت ذا تجد نفسك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التى تبدو وكأن لا معنى لها ولا دلالة ، أى أنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع ، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد فى الحقائق وإنما فى الأنماط التى يستخلصها عقل الباحث ، وأن عليه (إن كان حقاً محباً للحقيقة وليس عبداً للحقائق) أن يكد ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود فى المكان ، ولكن تظل الصورة فى حاجة إلى مزيد من الظلال ، حتى لا نقع فى عالم الأشباح العامة ، وحتى ننتقل من مجرد النيجاتيف أو أشعة إكس التى لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التى رسمتها يد إنسان ولذا فهى قادرة أن تنطق بالعام والخاص، وأن تحيط بالكم والكيف والزمان والمكان وبما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول اليه إلا من خلال استراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبته لانجاز هذا ، يشير جمال حمدان الى توزيع اليهود المهنى والوظيفى ويلاحظ ابتعادهم عن الزراعة اولا وعن الصناعة الى حد بعيد (ص ١٠٣) كما يلاحظ انهم يتركزون فى الاعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفيـــة.. الخ (ص ١٠٤) .

ثم بعد أن يحدد الاطروحة بهذا الشكل العام ينطلق فى الزمان والمكان ويبين أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر .

وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة التاجر وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجار والمال والصحافة حتى

لنجد على سبيل المثال أن نصف مجموع الاطباء والمحامين فى ولاية نيويورك .من اليهود (ص ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز ليصبح نمطا عالميا والهيودى بهذا كله قد اصبح مركبا اقتصاديا - اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة كذلك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا» وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل افريقيا الشرقية يهود شرق افريقيا (ص ١١٦) أى أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود الى عالم الإنسان ككل وتصبح الظاهرة اليهودية جزءا من العلم العام ، علم اجتماع الاقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البعد الدينى ، فرغم تأكيده على أن الصراع العربي الاسرائيلى ليس صراعا دينيا على الأقل من طرفنا إلا أنه لا يسقط المكون الدينى فكما أن الدائرة إسلامية فى إحدى الدوائر الأساسية التى تقع مصر وفلسطين فى وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدى الدوائر الأساسية للصهيونية واسرائيل . ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها بأنها وحدهامن بين الاديان السماوية، هى التى تشترك مع كثير من الديانات وتجتر نفسها ابدا واليهودية قد تكون عالمية بحكم توزيعها ولكنها فى واقع الأمر ابعد شيء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل .ويحكم أن اليهودية

ديانة جغرافية مقصورة على وطن وعنصرية مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه (ص ٩٧) . وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضا من أعماله ويشير له بالفعل فى بعض دراساته الاخرى مما يبين مدى اتساع أفقه الثقافى والتفسيرى .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر فى رؤيته للاندماج ، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبين أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية (ص ١٧٠). ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود الى أن يختفوا وعلى عكس ما يتصور البعض هنا فى العالم العربي لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر (ص ١٧١) ومن هنا الصهاينة ومن هنا الدولة الجيتو (ص ١٧٢) : وهذا تحليل يبين التزام جمال حمدان بالتعددية السلبية ورفضه أن يعطى أولوية سببية لعنصر واحد فظهور الدولة الصهيونية هو ولا شك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة، ولكن هناك ايضا عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة، ولذا لابد أن ترصد هذه الدولة لا فى إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطاير ؟

يتحرك جمال حمدان من العام الى الخاص ومن الخاص الى العام ولذا فهو حريص على أن يبتعد اسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحث عن كلمات وعبارات محددة تعبر عن المنحنى الخاص لرؤيته ولذا تجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة جغرافيا صماء. ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب (الرص والرصانة) أو الجمل المتناقضة عدوان أنى واقع وعدوان سيقع فى أى وقت . وهناك النبرة الخاصة فى خطابه، فهو قادر على أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارىء مباشرة. ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة فى ذاتها ، كما أنه مصرى صميم فى ولائه شبه الكامل للنكتة ، ولكنها نكتة توظف دائما فى خدمة الرؤية !

انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر أما الانفتاح الذى يرادف الانتفاخ فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة فى أعلى السلم الاجتماعى (ثلاثية حمدان ص ٢٢) هذا التلاعب بالالفاظ الذى هو جوهره شكل من اشكال الدعابة يعبر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصري فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيرا استخدامه للمجاز واللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه. ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد فإنه كثيرا ما يلجأ للمجاز وهذا فى حد ذاته تعبير أيضا عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التى تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية، ففى وصفه لتوزع اليهود فى العالم يبين أنه ليس صحيحا ان تحت كل حجر فى العالم يهوديا، ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة اخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : الأصح أن نقو ل أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيانا الى تراب رمزى بحث . وهكذا يتحول الحجر الصلب الى رشاش متطاير ثم الى تراب (ص-١٠٥) وفى مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعة عالميا بمستعمرات اليهود ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريبا فقد اخذ صورة نهر المجرة ليحوله الى منثور من النوى والنويات السديمية (ص ١٠٥) بدلا من النور الذى له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

أثر جمال حمدان

هناك قضية خاصة ولكنها عامة غير ذاتية تماما وغير موضوعية تماما فى ذات الوقت ثنائية حمدانية ، وهى علاقتى ومدى تأثرى به قرأت هذا الكتاب حينما كنت اكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية والتى صدرت عام ١٩٧٥ .

كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء فى أسلوب كتابته أم أسلوب حياته : هذا الزهد العلمى الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذى مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفى الضخم ولعل هذا هو الذى شجعنى على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعى المعرفى . ومن المفارقات التى تستحق التأمل أن هذا الاستاذ الجامعى الذى ترك الجامعة ، والمثقف الذى اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو اننى حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأنى فى هذا شأن أى باحث .

ولكن يبدو ايضا اننى استوعبت فى ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماما دون أن أدرى غير أنى لم أدرك هذا إلا مؤخرا بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية

والصهيونية: نموذج تفسيرى وتصنيفى جديد والتى أستغرقت معظم الفترة السابقة من حياتى وجلست لأتأمل فى مصادر فكرى وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة فهالنى حجم تأثرى به فى طريقة تفكيره. لقد جاء فى كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت ، واستبعدت ما استبعدت ثم تبدلت المعلومات وتحورت كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقى ما هو أهم : بقى فكره ورؤيته ومنهجه . فمن الواضح اننى تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس فى عملية التفكير العلمى. ومن أهم ماتعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها فى نطاق العلم الإنسانى العام ووضعها فى عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة . ولكن أهم ماتعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتى مثل د. ايميل جورج – د. نور شريف – د. ديفيد وايمر . طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل فى المعلومات وتفسيرها. لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تكتشف الانماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف تجرد الحقيقة من الحقائق ولا أدرى هل تعلمت منه ايضا شيئا من الصلابة والقدرة على المقاومة .

أثر جمال حمدان لا يمكن أن نجده فى سطر أو سطرين أو صفحة او صحفتين من كتاباته . وإنما هو هناك بين السطور . وهذا هو أعمق الأثر. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمى المعلوماتى . أهملت أهمية هذا النوع من التأثر فمجال البحث العلمى بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها ، ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادة ما يبحثون دائما عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر وهكذا عدنا مرة أخرى لشركات النقل ! وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور فى إطار هذا النموذج المعلوماتى . مما يعنى أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الاسهام لا يوجد فى سطر بعينه أو فى صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يقاس ولا يمسك بالحواس ولذا فهو غير موجود من منظور كمى معلوماتى .

كما أننى يمكننى أن أثير قضية أخرى وهى لم لم يؤثر جمال حمدان فى هؤلاء الذين يكتبون دراسات فى نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكرى يمكننى القول أن النموذج المعلوماتى التراكمى قد سيطر تماما وحول كل شيء (الاراء والرؤى والأحلام والآلام) الى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية يتناولها بنهم الكتاب المعلوماتيين وأعتقد أن معظم ما يكتب هذه الأيام يكتب صدورا عن هذا النموذج ولكن الأسوأ من

هذا أن ما يقرأ الآن يقرأ بنفس الطريقة وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل الى ما توصل اليه من نتائج وكيف نجح او اخفق فى توصيله . ولا بد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثى ونبين ما أنجزه منه وما لم ينجزه – فهناك اجندة بحثية بين السطور علينا أن نصل اليها ونبينها للأجيال إن جمال حمدان وضع اساس خطاب تحليلى جديد لم يلتزم به هو نفسه احيانا، وهذا هو شأن الرواد دائما علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل الى برنامج بحثى يحوى الاشكاليات الأساسية التى طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدرا وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تسحب من الخزائن فى المناسبات العامة ليكرم اسم صاحبها ثم تعاد مرة أخرى لتستمر فى الرقاد ! يتحول هذا الانجاز الشامخ الي رصيد حى يضاف الى رصيد هذه الأمة الفكرى فيزيدها علما وحياة . والله أعلم .

اليهود
انثروبولوجيا

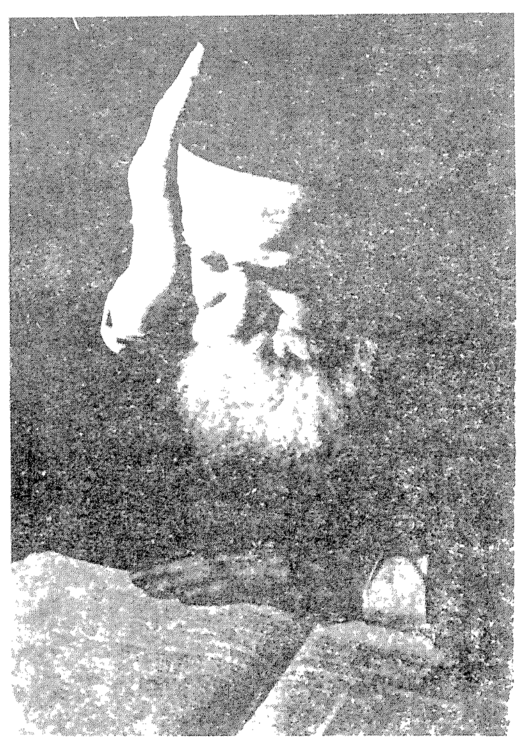
«إن العــرب واليـهـود أبناء عم من الناحـيـة العنصـرية بهـذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين الهاشمي الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد، يخاطب القاضى الامريكى اليهـودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩ وهو بعد أن يضيف الى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنـوا من القيام بـه فى طـريق تحقيق أهدافهم القومية، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى «أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم الى البلاد ..وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا . ويعود نفس المتحدث الى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن ان هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين ..

وبعد نحـو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوي القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها أن تتكلم، كما لو بلسان الانثروبولوجيين ، تعـود نفس النغمـة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الأخير انه لا يكن شيئا ضد اليهود يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين . لأننا أبناء

عمومة فى الدم وهنا حسين الاردن اخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن اخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا إلى جنب وفى صداقة وتعاون كأقارب وجيران ..

عميقة إذن هذه الفكرة فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ومنتشرة متفشية هى إذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب انفسهم بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت او فرضت نفسها عليهم. ولا جدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التى يمكن أن تترتب عليها، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق!

فرغم أنه من الثابت المقرر فى القانون الدولى ان ترك شعب لوطنه الافا سحيقة من السنين لا يمكن إلا أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة اليه الآن، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية . للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر، الأمر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لا يتصور، نقول رغم هذا كله فان فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الاولى فى فلسطين . وقد يمكن ان تفتح بابا للحلول الخاطئة أو الخائنة ، سيئة النية أو ساذجة النية .



عالم تلمودى

وليس هذا مجرد استدلال اكاديمى او اسقاط منطقى وانما هو بالفعل مانجده فى اكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية فليس بعيدا مشروع الملك عبد الله الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الاربعينات ، من انشاء مملكة سامية يكون هو على رأسها ويكون اليهود فيها حكمهم الذاتى وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة الاتحاد الفيدرالى السامي بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الأخير The other side of the coin. الذى يقترح فيه ان يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل اوروبى الى اوروبا ويبقى الاسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيوشوا معهم فى دولة واحدة جديدة تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية متطلعة إلى اتحاد اقتصادى مع الاردن وغزة ومتجهة فى النهاية الى «اتحاد سامى» كبير .

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات او نقدها فكل حل لا يعيد الوضع الى ماكان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش، وكل حل لايزيل اسرائيل من الوجود لا محل له من البحث العلمى ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الاساس الجنسى المزعوم فى تلك المشروعات : احقا نحن أقارب اليهود وأبناء عمومتهم ؟ على أى اساس علمى ذلك ، وأى دليل تاريخى ينهض بذلك؟! واضح ان المجال هو مجال الانثروبولوجى والانثروبولوجيا – علم الانسان –

بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية.. الخ ..

ونحن نلاحظ ان أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة او غير المباشرة التي تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة.. الخ . وفى هذا الاطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى - الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، ونبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا ! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة الى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا ... إلخ .

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الانثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم ، وإلى أى حد ينتمون الى أصولهم الأولى ومن ثم الى أية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم.

وفى تقديرينا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر

بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها. كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى أن تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد - فعلا إن لم تعترف علنا - على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا ، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسيا.

ونحن من جانبنا - على صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا - لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية ، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر - كما يتفق ولحسن الحظ - القضية السياسية وتدعمها ولا تتعارض معها فى الجوهر والصميم . إن الحق والحقيقة - كما سنرى - فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول ما نسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم - أبى الأنبياء إبراهيم الخليل - الذي ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور . ومن قبل كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك «الخزان البشرى» الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كأقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها «ولود» - يقذف بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى عام ١٨٠٠ ق.م هاجر إبراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة ، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم إلى فلسطين . وهناك سيولد له اسحق ، ولاسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة .

ولكن هجرة إبراهيم الى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الأخيرة ، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد، وإنما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت

عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق.م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية – أو بالأحرى تسميات – اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات : إسرائيل والعبريون واليهود . والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل ، الأسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث «عبروا» النهر – نهر الفرات أو نهر الأردن لا ندرى أيهما المقصود تماما – فسموا بالعبرانيين . ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru ، وعند البابليين Khebirru ولو أن هذه وتلك تعنى ، فى رواية ، البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم فى كنعان اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل أصلا على أبناء يهودا Jehudah,Judah أحد أبناء يعقوب ، الذين أصبحوا يمثلون البقية المهمة من بنى إسرائيل بعد الأسر البابلى ، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعا . واسم يهودا نفسه قريب من اسم إله الشعب ياهو Jahveh, Jehovah التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى ياهو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان أساسا ، نسبة الى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء . وفى

الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين - هم الآخرين - قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من الجزيرة العربية منذ ٢٥٠٠ ق.م - وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق.م - وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف - أو ألفى سنة وأقاموا بها حضارة راقية . كذلك فان جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين . ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة .

إلى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان ، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا الى الشمال ، وهم أولاد أناك Anak فى التوراة ، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصري الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق.م. وحتى نستكمل الصورة ، يحسن أن نذكر أيضا - خارج فلسطين ولكن بجانبها توا - الآراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ ق.م ، أى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين .

ولا يبقى لنا الآن فى التتابع التاريخى سوى الفلسطينيين Phi-listine الذين يعدون - وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة . أصل

هؤلاء من «شعوب البحرSea-Peoples » المشهورين فى التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الإيجى بعامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات في موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين – الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم – أن يستقروا على ساحل أرض كنعان في ١٢٠٠ ق.م ، أى أيام حروب طروادة ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين ، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والأراضى الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الأصليين . وأغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى لا أخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا ، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة. حتى إذا كان منتصف القرن ١٧ ق.م ، أى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة إبراهيم ، هاجر يعقوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشان Land of Goshen وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد إبراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استعبدهم «ومرر حياتهم فى الطوب

والملاط» انتقاما منهم لتهاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا «الخروج» كانت ٦٠٠ ألف نسمة . وكانت العودة الى أرض كنعان الهدف ، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين «العمالقة» أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض أن الحكمة من التيه ، الذى أمتد بذلك الى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا ، هو اخضاع اليهود لعملية صارمة من «الانتخاب الطبيعى» تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تديل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، الى أن قادهم يشوع الى نهر الأردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .

وفى فجر الألف الأولى قبل الميلاد بالضبط (وبالتحديد عام ١٠٠٠ ق.م) وحد داود الأسباط أو قبائل إسرائيل الاثنتى عشرة ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة إسرائيل حتى امتدت «أرض إسرائيل Frets Israel من دان فى الشمال الى بير سبع فى الجنوب» . واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها الى أورشليم lerouschoulam أى مدينة السلام

غـــيـــر أن الدولة – التى لم تصل قط أو لم تصل إلا بالكاد الى الساحل – لم تلبث أن انشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل الى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة يهودية ، وتضم قبيلتى يهـودا وبنيـامين ، ومملكة إسـرائيل شـمـالا فى السـامـرة ، وتضم القبـائل العشـر البـاقيـة . ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حـدود هـاتين الدولتين تتفق الى حد أو آخر لا مع رقعة إسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن .

والمهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين ، وقعتا فى سيـاسـة المضـاربة بين مـصـر والعـراق أو الخضـوع لهـمـا ، فـتـعـرضت المملكة الجنوبية لطرقات مـصـر مـرتين ، الأولى على يد شيشنق والثانية على يد نخـاو ، الى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضى عليها نهائيا سرجون الأشورى فى القرن ٨ ق.م (عام ٧٢١) **ثم قضي نبوختنصر البابلي علي الجنوبية في القرن ٦ ق.م حـيث دمـر أورشليم والهـيكل (٥٨٦ ق.م) . وبذلك زالت الي الأبد دولة اليـهـود في فلسطين بعد حيـاة طولها أربعـة قرون فـقط** يغلب عليها الطابع الدموى العنيف ، بينما أن كل إقـامة اليـهـود المتصلة فى فلسطين لم تزد على سـتـة قـرون من ١٢٠٠ ق.م حتى ٥٨٦ ق.م .

الشتات

الشتات البابلى

وإذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية - سفر التكوين - فان من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعا . فقد بدأ سرجون بنقل كثير من إسرائيلى السامرة من أبناء القبائل العشر الى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى . ولكنه نبوختنصر بالذات الذي نقل أغلبية اليهود - آخرون يقولون ربع سكان يهودية - أسرى الى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة أرباع المليون .

ذلك كان «الأسر البابلى» الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الأول . وإذا كان الفرس ، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى عام ٥٣٨ ق.م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم بعد نصف قرن من الأسر البابلى ، فإن قلة ضئيلة هى التى عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا ، وحتى هذه لم تجد ترحيبا لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون الذين وطنوا بها ولذلك أسكنوا فى منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم .

أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت

مستعمرات مهمة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية إبان العصور العربية الإسلامية . وقد امتد انتشار اليهود فى العراق شمالا إلى كردستان . غير أن يهود العراق - مع كل سكانه - تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضعة آلاف فقط . على أن يهود العراق كانوا نواة الشتات شرقا . فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهد كسرى ، ولكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى . وبالمثل كان يهود هيرات فى أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس .

كذلك يقال أن يهود القوقاز - الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاريس جبالها هناك الى العصر الأشورى ، ولو أن أول ذكر لها تاريخيا يرجع إلى القرن الخامس الميلادى - يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة . ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهاياته ومستعمراته القصوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين .

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولو أننا لا نعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التى سلوكها اليها، ومن ثم لا ندرى إذا كان امتدادهم اليها يرتبط بالشتات البابلى أو بما تلاه من شتات . ففى الجاهلية

الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن . ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب . غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما فى اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كبيرة من سكان العصر السبئى الى اليهودية ، بل كان أحد ملوك سبأ فى القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس . كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا ثم تحولوا مبكرا الى القبطية غير أن ظهور الإسلام صفى اليهودية تماما فى الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود الى وقتنا هذا .

هذا ، وإذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق ، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا الى شمال افريقيا (المغرب) حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين أنفسهم البلشتيم Plishtim والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفينيقيين ، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة – بالتحول – بدرجة ما فى حين مابين عدة قبائل بربرية حتى ماقبل قدوم الإسلام .

الشتات الهلينى

أما الشتات الثانى من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الإسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة . فإذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التى انشأت دولة يهودية ضد - هيللينية ، فان الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللينستى والبيزنطى .

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ ألفا من السكان الأصليين (؟) . وعدا مصر ، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى . وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية ، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل . وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم الى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية . أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الاغريق بعد الأسكندر . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التى اجتاحت جنوب الروسيا.

غير أن للتتار هنا دورا مهما فى التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أو تحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية أخرى ، الى اليهودية في القرن الثامن أى أيام شارلمان ، بينما - بالمقابل - تحول اليهود المهاجرون الى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم . وقد ألغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القومى ظل حتى القرن الحادى عشر الى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة . وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة الى ما عسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق - فى روثينيا فى القرنين ١٠ - ١١ ، وفى بولندا فى القرنين ١٢ - ١٤ .

وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول أى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها ، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف «تاريخيا بحظيرة اليهود Jewish Pale».

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم . انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا الى العالم الرومانى أى الى الغرب الأقصى بالنسبة الى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة . وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية ، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى .

فلقد تواترت ثورات اليهود – الذين لم يعودوا يزيدون علي أقلية من سكان فلسطين – علي الحكم الروماني الذي رد بتخريب أورشليم والهيكل وبإبادة اليهود في مذبحة عام ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التي صفت أغلبهم محليا وفر منها أقلهم الي مصر وسوريا . غير أن بقايا اليهود عادوا الي الثورة في عام ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الي الأبد علي مصير اليهود في فلسطين كدولة وكقومية . فعاد تدمير أورشليم والهيكل مرة أخري ، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة .

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus أن

۱٫۳٥۰٫۰۰۰ قتلوا فى المعارك التى يعددها ، كما يقال أن ۹۰۰٫۰۰۰ آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات مئات من لآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح . ويعلق هنتنجتون - هو جغرافى يهودى لا يخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها لا شك ، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة لتاريخية وإشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود ى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى . ومن الناحية الأخرى فان البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لا يقل عن ٦۰۰ ألف . فإذا صح هذا الرقم ، ولعله أدنى الى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئا .

وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته . فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا ، وطردوهم من فلسطين الى كل أجزاء الامبراطورية ، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه إلى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا . أنه الخروج الأخير . كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص . وحتى ندرك مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات ، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو ٤۰ ألفا فقط !

وهو رقم لابد أن نتـذكـره دائمـا لما سـيكون له من دلالة جنسـيـة وتاريخية وسياسية عميقة المغزى .

أما ما تبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد تحول بعض أفرادها الى المسيحية . ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس (Schechem القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم على مائة أو مـائتين ! وفى بداية القـرن التاسع عشـر لم يكن عـدد اليـهـود فى فلسطين كلها ليزيد علـى ١٠ آلاف نسمة .

والملاحظ أن تحـولا جـذريا طرأ على اليـهـود بعـد هـذه الإبادة الشاملة والتشريد . فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان . وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف . أمـا بعـد مـجازر الأشـوريين والبـابليين ثم الرومـان فـقـد تحـول اليهودى فجأة الى شـخصية مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسـائل الناعمـة والملتـوية وبالتـزلف والمكر والخـديعـة . ويرجع هنتنجتون هذا التحـول فى الشـخصـيـة الجمـاعـيـة الى عملية الانتخابات التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث ... الخ . ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم .

على أن يهود الشتات الروماني لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وإنما كذلك من كل مستعمراتهم السابقة فى العالم الهللنستى . فتبعوا الرومان الى إيطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين ، وكان طريق الرون - الراين - فرانكفورت ، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى ، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى . ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا الى الراين ، حيث تحولت فرانكونيا بالذات الى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد. ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا .

ويقدر البعض عدد اليهود فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤ ، ٧ ملايين أى نحو ٧٪ من مجموع السكان. وهذا الرقم ـ أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ـ ينبغى أن نذكره جيدا وأن نقرنه فى الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ ٤٠ ألفا، لأن معناه أن اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠، ١٨٠ مرة فى أقل من ٥٠٠ سنة (!) وهو معدل فلكى لايمكن إلا أن يلقى ضوءا

حاسما على طريقة نموهم، إن تزايدا طبيعيا أو تزايدا بالتبشير والتحول

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا مثلما إثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها. هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا. ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفت يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة. أما يهود إيطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا - فضلا عن ذلك - هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد.

أما يهود ألمانيا وأسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة. فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية وجنوب أوروبا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى، أعنى ثنائية الأشكناز والسفارديم على الترتيب Sephardim Ashkenazim والأشكنازيم والسفارديم كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما

التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب، أعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بنيامين، والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم «أرستقراطية» اليهود على الأساس الدينى، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا ـ ٨٠ إلى ٩٠٪ فيما يقدر ـ والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريا إلى حد يحتقرون معه السفارديم احتقارا لايحفلون بإخفائه.

فإذا عدنا إلى الشتات وبدأنا بالأشكناز، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦) ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون إلى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر، هنالك بدأت الهجرة الهاربة التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساسا نحو الشرق، ومن الشرق اتجهت لأن ملوك بولنده، الذين كانوا يعملون على زيادة سكان مدنهم، رحبوا بكل هجرة، فاغتنم اليهود الفرصة، وكان خروجا بالجملة وصل إلى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده، غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة إلى مجرد بقايا أو إلى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن ألمانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت .Worms وفرمس وفيرث Furth.

أما فى بولنده وجنوب الروسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولنده بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها إلى الروسيا. وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ماتتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون إلى يهود قرائين، وإلى يهود القرمشاك Krimshaksالربانيين، كما تتمثل فى يهود ليتوانيا القرائين.

والمهم أن ذلك اللقاء تحول ـ ولم يكن له بد من أن يتحول ـ ليس فقط إلى شملية تراكم عددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم، وإنما تحولت كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء. ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التى نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yeddishالمستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب ـ وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية ـ والتى ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التى لاحصر لها.

أمـا عن السفـارديم فتبدأ قصتهم مع طـرد اليهـود ـ جنبا إلى جنب مع العرب ـ مـن أسـبانيـا فى حـروب، «الاسـتـرداد Reconquista » عام ١٤٩٢ بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش. والمقدر أن عدد يهود أسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة. وقد انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة إلى هولندا وانجلترا، وإلى إيطاليا وفرنسا، ولكن خاصة إلى شمال افريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس، وبالأخص إلى الامبراطورية العثمانية، ففى الامبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين.

وفى كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح السفارديم ـ كالأشكنازيم فى مهجرهم الجديد ـ هم السائدون عدديا بين الجاليات اليهودية، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان. وفى كل هذا المجال الجغرافى أطلق عليهم اسم الأسبانيولى Spaniol, Spagnuoli كما حملوا إليه ـ كالأشكناز ـ لغتهم الأسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الأسبانية.

الشتات الحديث

تلك قصة «اليهودى التائه أو المتجول» من أول شتات قبل الميلاد إلى آخر شتات فى مطلع العصور الحديثة. بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين، ولا بأس أن نشير هنا بإيجاز إلى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة، وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للأشكنازيم بحكم سيادتهم العددية، وإذا كان السفارديم قد ساهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود.

والانتشار الأول والأهم فى الفترة المعاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة، ويمكن أن نميز فى هجرة اليهود إلى أمريكا الشمالية مراحل ثلاث، لكل منها قطبها الجغرافى، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى. فالأولى تتفق مع مايعرف فى التاريخ الأمريكى «بالعصر الاستعمارى» فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومصدرها الرئيسى أسبانيا والبرتغال، وقوامها السفارديم أساسا، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان، ولكنها فى الجملة قوة محدودة عدديا.

أما المرحلة الثانية ففى أواسط القرن التاسع عشر تقع، وترتبط أساسا بأواسط أوروبا، ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا، ذلك عصر

الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة، فكان خروج يهودى نشيط حمل إلي الولايات المتحدة نحو ربع المليون: فالمقدر أن ثورتى ١٨٣٠، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ٢٣٠ ألف يهودى.

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ إلى ١٩١٤، وكان قطبها المركزى فى الإرسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا ـ المجر ورومانيا. وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١، ١٩١٠ زهاء ١,٥٦٢,٠٠٠، منهم ١,١١٩,٠٠٠ من الروسيا، وفيما بين ١٩٠٠، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ ألف يهودى إلى الولايات المتحدة، ٦٠ ألفا إلى كندا.

ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوروبا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض وعلى وجه الإطلاق، كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين.

أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير، وكانت استراليا وجنوب افريقيا هما القطبين الأساسيين فيها، غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفييتى حيث هجر بعض من يهود

الروسيا إلى الشرق الأقصى السوفييتى وأقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الآمور، ومحصلة كل هذه الهجرات أن الإنتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات، أى على إطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ.

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة، فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود، الذى وصل إلى قمته فى عمليات الإبادة الجماعية التى يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ أو صوابا وأن حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى، أدى هذا إلى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوروبا الوسطى بعامة، وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة، فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوروبا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع إسرائيل.

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هى دورة جديدة فى ـ ماذا نقول ـ شتات اليهود، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى

الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين، إنها الدورة الصهيونية التى قامت بعملية «إسقاط» على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الأسر البابلى حتى ضد السامية النازية. ومع اغتصاب فلسطين، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة «حرب الاستقلال» و«العودة إلى أرض الميعاد» (!) تشعبت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة.

من بين هذه التيارات كان التيار الأوروبى هو السائد فى بداية صنع إسرائيل، ثم تحول إلى آسيا، وبعدها إلى افريقيا على الترتيب. ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما فى العالم العربى، بينما طرد عرب فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة، فقد وصل السفه الإسرائيلى الصهيونى إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية «تبادل سكان»! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن إسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة فى رحلة الشتات التاريخية، مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين، وقريب هو لاشك «الخروج» الجديد..



الحى اليهودى فى عدن

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة إلى صورتهم الأستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية. ولقد رأينا التفرقة بين الأشكناز والسفارديم، ولكن لابد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews.

هؤلاء لايقعون داخل أى من المجموعتين الأوليتين، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية. وهم إذا كانوا ـ نظريا ـ الأقرب إلى الأصول الفلسطينية، فإنهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر إليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة.

أما توزيعا، فإن الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا، بالإضافة إلى خلاياهم الجديدة التى انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه، ثم جنوب افريقيا واستراليا، ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبية، بالإضافة أخيرا إلى امتداداتهم الحديثة، والمحدودة فى العالم الجديد شماله وجنوبه، أما اليهود الشرقيون فإليهم تنتمى

مستعمرات فى شمال افريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية، وكذلك الهند والصين.

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل، ففى القوقاز تنتثر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة: فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى Lesghians ويتكلمون لهجة فارسية، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha فى أذربيجان. أما فى فلسطين، فإذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين.



مطار بن جوريون

توزيع اليهود فى العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما، وآن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية Judenthum تحت المجهر وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا، فإن لتوزيع اليهود فى ذاته ـ واليهود بالذات ـ قيمة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما سنرى، ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة مابين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة الامثال فى توزيعها المكانى.

إنها إذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد، إلا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب إلى الجمود والتوقف النسبى. فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون إلى نقطة البدء من جديد، أما الذبذبة فى المكان فتنتهى إلى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الإقليمية بصورة انقلابية تماما.

ونحن نستطيع هنا أن نعرض «لقطتين» لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية. الأولى فى العقد أو العقدين الآخيرين من القرن الماضى، والثانية فى

يومنا هذا، فحولنا ١٨٨٠ وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦,٥ مليون نسمة، منهم ٥,٥ مليون فى أوروبا وحدها بنسبة ٨٤,٥٪، ٤٢ ألفا فى افريقيا بنسبة ٦,٥٪، ٢٥٠ ألفا فى آسيا بنسبة ٤٪، والبقية فى أمريكا واستراليا.

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ إلى ٩ ملايين . من هؤلاء كان ٦ ـ ٧ ملايين يتوزعون فى أوروبا وحدها أى بنسبة ٨٠٪. وهناك فى أوروبا، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شىء عن التجانس، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب . فالأولى دائرة الأساس ، وهى بالفعل دائرية شكلا، تغطى جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ثم أقصى شرق المانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ،ثم أخيرا امبراطورية النمسا - المجر شمال الدانوب . وحدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر إقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز الى البلطيق .

أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ ملايين يهودى : إنها ببساطة قطب اليهودية فى العالم . وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخى ، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها الى الغرب ،

بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، الى جانب التحول الدينى المحلى . من هذه الدائرة يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ - ٥ ملايين أى نصف يهود العالم . ولكننا حين نقول الروسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندة الذى ضم إليها فى التقسيم السياسى «Polognerusse» والذى كان هو النواة النووية الحقة فى كل دائرة الهيود الشرقية . بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم . أما بقية التوزيع فكانت النمسا - المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى ٦٠٠ - ٧٠٠ ألف .

أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير ، فتنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت . فكان بكل ألمانيا نحو ٦٠٠ - ٧٠٠ ألف ، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة ، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا . أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، إيطاليا ٥٠ ألفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا ، وفى اسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ «الاسترداد» أما خارج أوربا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لايزيدون حينذاك رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا - لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى ، منهم ربع مليون فى نيويورك .

وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثرمن ١١ مليونا ، نصفهم فى الروسيا ورومانيا ، وثلثهم فى المانيا والنمسا ، والسدس فى بقية العالم . ولكن أثر الهجرة الى العالم الجديد كان قد بدأ ، فان أغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣٪ من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها .

ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من أمر ، و بغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فإن ملامح الصورة العامة واضحة ، فأوروبا هى عمليا الوطن المطلق لليهودية العالمية ، ومايوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق الى الغرب : دائرة شرق أوربا ومركزها بولندة الروسية، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك .

لننظر الآن الى توزيع اليهود المعاصرين لنرى الانقلاب المطلق ، فقط لنذكر أولا أن الصورة فى أوروبا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه . تتشابه من حيث أنها تمثل تكثيفا

تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة الى العالم الجديد بصورة حاسمة . إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصف القرن التاسع عشر الى نمط منتصف القرن العشرين .

ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم بنحو ١٥ مليونا ، (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت إبادة النازية التى - وأن رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية - حصدت منهم لاشك عددا كبيرا).

أما عن التوزيع ، فالمقدر أنه كان بأوربا ١٠ ملايين أى الثلثان ، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفيتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة ، أما أمريكا فكان نصيبها ٥ و٤ من المليون ، وآسيا ثلاثة أرباع المليون .

أما عام - ١٩٦٦ - وبعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب، فإن عددهم يقدر رسميا بنحو ١٣,٤ من المليون . والرقم - قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته - جدير بوقفة تأمل ، فإن له أكثر من مغزى . فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود فى القرن الخامس الميلادى (٤ - ٧ ملايين) فإن معناه أن اليهود فى ١٥٠٠ سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولاتفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب ، أو ميكانيكية

شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعي وقوى الاضطهاد والابادة . ثانيا ، وفي الاطار الكوكبي ، يبدو أن اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية في ديموغرافية العالم : ١٢,٤ من المليون من أكثر ٣٣٠٠ مليون ، أو ٣ - ٤ في الألف من سكان العالم ، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة .

والواقع أن اليهودية ، وحدها من بين الأديان السماوية ، هي التي تشترك مع كثيرمن الديانات غير السماوية ، في أنها ديانة «مقفلة أو مغلقة» أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا . واذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه الى نوعين : ديانات «جغرافية» وديانات «عنصرية» - يعني على الترتيب ديانات محلية التوزيع مقصورة على وطن أو بيئة محدودة ، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه - فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة .

فهم قد بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ،وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ في أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها ، وإن كانت أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل . كذلك فقد تخلط اليهود - كما سنرى - وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتي لاحصر لها فما عادوا عنصرا بعينه متجمدا على الديانة ، ولا الديانة عادت

مـرادفـة لعنصـر جنسـى واحـد . ومع ذلك فـاليـهـود واليـهـودية ، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة .

والآن كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية ؟ الجدول الآتى ، الذى يدور حول أواخـر الخـمـسـينات وكـمـا أورده كـتـاب (اليـهـودية العـالمـية World Jewry) لايعطى إلا ١٢ مليـونا كمجموع كلى ، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلاً عن صورة اليوم ، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام .

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٨
أمريكا الشمالية	٥,٤٣٣,٠٠٠	٤٥,١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣,٠٠٠	٥,٣
آسيا	١,٨٥٥,٠٠٠	١٥,٤
افريقيا	٥٨٥,٠٠٠	٤,٩
استراليا ونيوزيلند	٦١,٠٠٠	٠,٥

والحقيقة الكبرى التى يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد ، السواد الأعظم منهم فى

أمريكا الشمالية التى تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد . هذا بينما لاتضم أوروبا ، وهى التى كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى تحتكر ٨٠٪ من يهود العالم ،لاتضم إلا مايزيد على الربع قليلا . انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل ! وهو انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائه : الى الغرب دائما .

أما آسيا وافريقيا فلا تجمعان معا الا خمس اليهودية ، وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية اسرائيل الدخيلة الغاصبة ، وبغيرها لاتزيد اسيا وافريقيا على ٧ – ٨ ٪ من يهود العالم ، بل يهوى عدد يهود اسيا الى ١٣٦ ألفا فقط وتهوى نسبة آسيا الى ٢,٥٪ لتصبح أقل من افريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء استراليا .

أما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام «اليهودية العالمية » سابق الذكر ، علما بأن النسب المئوية تشير الى نسبة يهود كل دولة الى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	٪
كندا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
الولايات المتحدة	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الأرجنتين	٣٦٠,٠٠٠	١,٨
البرازيل	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
أوروجواى	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
النمسا	١١,٨٠٠	٠,٢
بلجيشكا	٣٥,٠٠٠	٠,٤
هولندا	٢٦,٠٠٠	٠,٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢
بريطانيا	٤٥٠,٠٠٠	٠,٩٠
فرنسا	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
بولنده	٤٥,٠٠٠	٠,٢
المانيا	٣٠,٠٠٠	٠,٠
المجر	١١٠,٠٠٠	١,١

الدولة	عدد اليهود	%
ايطاليا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
رومانيا	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الاتحاد السوفيتى	٣٦٠,٠٠٠	١,٨
تركيا	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
المغرب	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
الجزائر	١١,٨٠٠	٠,٢
تونس	٣٥,٠٠٠	٠,٤
مصر	٢٦,٠٠٠	٠,٢
أثيوبيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢

الدولة	عدد اليهود	%
جنوب أفريقيا	١١٠,٠٠٠	٠,٧
الهند	٢٥,٤٠٠	٠,٠
ايران	٨٠,٠٠٠	٠,٤
أسرائيل	١,٧١٩,٠٠٠	٨٩,٢
سوريا	٥,٠٠٠	٠,١
لبنان	٦,٠٠٠	٠,٤
اليمن	٣,٥٠٠	٠,١
عدن	٨٠٠	٠,١
استراليا	٥٧,٠٠٠	٠,٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر .
فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوروبا الى أمريكا الشمالية ، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفييتى) الى الولايات المتحدة التى هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤٪ منها . وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٤,٠٨١,٠٠٠ فى ١٩٢٦ الى ٤,٤٦١,٠٠٠ فى ١٩٣٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه ٥ ملايين بحسب تقدير الأجهزة اليهودية . وكما يعلق بيرجل Bergel فذاك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا ماكان ، تظل كتلة الولايات المتحدة هى أضخم حشد يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفييتى الثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦٪ . وبهذا تكون الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوروبا والراين فى القرن الماضى ، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطاغى . ويلى الاتحاد السوفييتى اسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لاتضم من يهود العالم الا ١٢٪ .

واذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات ، فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على

أساسها أن نرى تغيرا ملحوظا فى أوزانهم . فالكتاب السنوى اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦ بنحو ١٣,٤ من المليون نسمة ، منهم ٥ ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧٪ ٢,٤٨٦,٠٠٠ فى الاتحاد السوفيتى بنسبة ١٨٪ ، ٢,٢٢٩,٠٠٠ فى اسرائيل بنسبة ١٦٪ وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة . والمهم على أية حال فإن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا ، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتى ، وارتفعت نسبة اسرائيل – لاشك بالهجرة – أكثر وأكثر .

هذا إذن عن «الثلاثة الكبار» – كما يقال – فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون الى ثلث المليون الى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا نصف ثم الارجنتين وفرنسا ثلث ثم كندا ورومانيا ربع . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها على المائة ألف ، هى على الترتيب ، المغرب ، فالجزائر ، فالبرازيل ، فالمجر ، فجمهورية جنوب أفريقيا ، مع ملاحظة أن الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة .

من هذا التصنيف الحجمى لايمكن الا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية إن لم تكن ثورية حقا .

فاذا نحن أضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهي أن ٨,٩ مليون يهودي من ١٣ مليونا أو نحو ٦٩٪ تحتشد جميعا في ثلاث من دول العالم وذلك بحسب أرقام الخمسينات أو ٩,٧٨٥,٠٠٠ من ١٣,٤٠٠,٠٠٠ أي بنسبة ٧١٪ بحسب أرقام ١٩٦٦ .

كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + ١٠٠ ألف لوجدناها تحتكر وحدها ١١,٢٠٧,٠٠٠ يهودي من المجموع العالمي البالغ حينذاك ١٢,٠٣٥,٠٠٠ أو زهاء ٩٣٪ فما معنى هذا ؟

قد يكون اليهودي عالمي التوزيع ، بمعنى أنه لا تكاد تخلو دولة في العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الإسلام الجغرافي الذي ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن «تحت كل حجر في العالم يهوديا» ... إنما الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحيانا إلى « تراب » رمزي بحت ، بينما أن ٦٩ ٪ أو ٧١٪ من يهود العالم يتكدسون ككتلة من «الاحجار الضخمة» في ٣ دول ، ٩٣٪ في ١٣ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود إلي عدد السكان الكلي في دول الجاليات الكبرى (ما عدا فلسطين المحتلة) بين ٣٪ كما في الولايات المتحدة وبين ١٪ ، تتأرجح في بقية دول العالم حوالي ٠,١ ، ٠,٢ ، ٠,٣ ، ٠,٤ في الأعم الأغلب ، وكثيرا ما تكون أقرب إلى الصفر .

أما إذا عدنا إلى التوزيعات الاقليمية ، فسنجد الصورة أوضح ما يكون ، ولكن أيضا أشد ما يكون ثورية فى أوروبا ، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضخمة ونوية ثانوية . النواة فى شرق أوروبا (٣ ملايين) الاتحاد السوفييتى بمليونين وربع المليون ثم رومانيا بربع مليون ، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت أطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية . أما النوية (أقل من المليون) ففى بريطانيا وفرنسا أساسا ، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما وأصبحت ألمانيا مثل بولنده من أقل دول أوروبا يهودا . وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما ، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية وحدات القارة وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوروبا شمال الألب من الشرق إلى الغرب .

وعلى العكس من هذا انحدارهم Gradient على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط فى شمال أفريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق ، من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى مصر . ونطاق يهود أفريقيا العربية ، الذى كان

يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وكلا المجالين - سيلاحظ - خارج مدارين بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التى تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال - كأثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوروبى السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

أما فى آسيا العربية - باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام إسرائيل - فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى أى مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠ ألف) واليمن (٧٠ ألفا) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربية . واليوم تأتى إيران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ ألفا) تليها الهند (٢٥ ألفا) - أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوروبى لا الآسيوى . وربما أتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها

الجديدة . وعدا هذا فبقية آسيا «خالية» من اليهود إلا من أعداد رمزية بحتة هنا وهناك .

أما في العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساسا في الشمال الشرقي ، الربع الغنى ، ثم تلى نوبة ثانوية في الغرب الأوسط وولايات الهادى . أما في الجنوب عامة وولايات الجبال فيقلون كثيرا . وبالمثل في أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفي النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما في البرازيل والأرجنتين . ومن هذا النمط ، وإذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزى ثقل اليهود في أوروبا من وسطها إلى غربها ، يمكننا بسهولة أن نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو كانت مغناطيسيا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال إفريقيا تقليديا في المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساسا في القلب القارى للعالم القديم .

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة فى توزيع اليهود على سطح الأرض . غير أننا ننسى نصف الحقيقة إذا نحن أغفلنا خاصية نادرة وشديدة الإلحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، وأعنى بها سكنى المدن .

فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة ، ثم هن إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولا تتبلور كما تتبلور فى وقتنا هذا . والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل أوضحها فى الذهن المثال الأمريكى .

يهود نيويورك = ٢,٥٦٠,٠٠٠

بينما يهود إسرائيل ٢,٣٦٤,٠٠٠

يهود نيويورك فى ٥ ضواحى أساسا : مانهاتن ، بروكلين ، برونكس ، كوينز، ريتشموند ، نصف مدرسى نيويورك يهود.. ، لذا فالمدارس تغلق يوم السبت.

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من ملونين ونصف المليون يهودى ، أى أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد

يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى . وهى بذلك أكبر «ارساب» يهودى فى أى نقطة منفردة فى العالم : إنها تل أبيب الكبرى ، بل إنها هى إسرائيل الكبرى . وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة . وتدل الدراسات السكانية فى الولايات المتحدة على أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها ، فهم أقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو ، بينما لا وزن لهم مثلا فى مدينة بوسطن.

هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كندا حيث كل اليهود ٢٣٣ ألفا نجد ٧٧ ألفا فى تورونتو ، ٦٥ ألفا فى مونتريول . فى باريس ١٧٥ ألفا أى ٥٠٪ من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ ألفا . فى لندن ٢٨٠ ألفا من أصل مجموع ٤٥٠ ألفا . مدينة تونس ٥٥ ألفا بينما أن دولة تونس ٨٠ ألفا . اسطنبول ٥٠ ألفا فى حين أن كل يهود تركيا ٦٠ ألفا . فى جمهورية جنوب افريقيا ١١٠ آلاف ، ٥٠ ألفا منهم فى جوهانسبرج وحدها . وفى استراليا يتركز فى ملبورن ٢٥ ألفا وفى سيدنى ٢٢ ألفا من مجموع كلى قدره نحو ٥٧ ألفا . وهكذا وهكذا .

حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥,٩٪ من سكان إسرائيل يتكدسون فى المدن ، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد اسكتلندا ثم

انجلترا وويلز فى درجة المدنية Urbanism والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية . ولكنها ببساطة «حثالة مدن» العالم انصبت واستقطبت فى دولة..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود ، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شئ عن التوزيع «الغطائى» الشامل وإنما هم أدنى إلى التوزيع النقطى البحت . الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك . على أن هذا إن حدد مجالاتهم الجغرافية ، فإنه عادة ما يجعل منهم أقليات مهمة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك ، بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضى ، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية ، ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يتفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة ..

إلام نرد هذه الظاهرة المميزة - إلى غريزة «طفيلية» استغلالية فى طريق الحياة اليهودية ، أم إلى قوى ضغط خارجية ؟ يرى

البعض ان قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة «الجيتو» ، ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا ، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء ، يكره بذل الجهد الجسمانى بعامة ، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله Brain not Brawn من هنا - وليس من هناك يبتعد عن الزراعة أولا وعن الصناعة إلى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية أو الصناعية ويتقاطر على العكس في المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية ... إلخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر ، وباستثناء بعض خلايا معزولة في الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف في التاريخ الحديث أن اليهودي ارتبط بالزراعة . وبالمثل في التعدين والصناعة : فمن الغريب أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة - على شدة تباين وتناقض مذاهبهما - لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديما كانت كلمة اليهودي مرادفة لكلمة «التاجر» ، وحديثا يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتي لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك - ودورها المحوري في الاقتصاد الأمريكي تلخصه

ببلاغة الكناية الساخرة «بالولاية الامبراطورية Empire state» اشارة إلي ناطحة السحاب المشهورة ! - نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق أن هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله - أكثر من التعصب الدينى البحت ربما - المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم . واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا - اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة : كذلك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا» ، وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل أفريقيا الشرقية «بيهود شرق افريقيا» ! ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساسا ، أكاد أقول «طفيليات مدن» أساسا ، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التى ستنعكس كما سنرى على مشكلتهم الانثروبولوجية .



شلما مصر الأول

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا ، ومتروبوليتانى ثانيا ، ولكن يبقى أخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود .. أنها الجيتو Ghetto حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم ، أرتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى خاص من المدينة : الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا ، أو حارة اليهود فى ألمانيا -Ju dengasse وكما نقول نحن فى مصر حارة اليهود ، وهو اليوديريا فى أسبانيا الوسيطة Juderia ، أو هو الملاه Mellah كما يقال فى مدن المغرب العربى ، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ما كانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، وأحيانا كان الحى برمته يقام خارج أسوار المدينة الأم ذاتها إمعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة . المنحلة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهو ايتشابل Whitechapel Stepney فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن العزلة السكنى Residential Segregation هو قانون اليهودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هذا العزل إلى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها ، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياه + شفخشنا كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك إحكاما للرقابة عليهم وحصرا لاخطارهم . ولكن كثيرا أيضا ما يرجع هذا إلى صنع اليهود أنفسهم ، سعيا منهم كأقلية مسحوقة إلى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود رحلا فى عصر التوراة ، وظلوا رحلا فى عالم الشتات ، وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الاصل الجنسى لليهود

حتى الآن لم نعرض إلا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون أن نتعرض للجانب الانثروبولوجى البحت أصلا وجنسا . وقد آن لنا أن نسائل أنفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم ، وإلى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد إلي بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهودي ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب «أبناء عمومة» ؟ على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية ، وعلى اجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغى أن نلتفت بوعى إلى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الانثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الاطماع السياسية ، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الانثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية أنهم ، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة إلى «أرض الميعاد» يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية ، يركزون بؤرتهم على «النقاوة الجنسية» لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى إسرائيل من

فلسطين إلي الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التى انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود ، أو الجنتيل Gentilles كما يسمون هم أنفسهم ، أو «الأمم» كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى إسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة ، وقومية تاريخية واحدة ، مثلما هم طائفة دينية . واحدة. ومن ذلك جميعا يخلصون، لا إلى تدعيم أسطورة «الشعب المختاره»، الشعب النقى الخالص فحسب، وإنما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين.

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية في المناقشة بالضرورة. والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة إلى حد غير عادى، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوروبى فحسب، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس أيضا – لاشك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم، وهى الكتابات التى تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة إلى أهداف بعيدة غير موضوعية، ولكن هناك – لحسن العلم – من وقف طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعية، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شئ عن الحقيقة والواقع.

وبهذا نكون آزاء مدرستين أو اتجاهين: اتجاه يرى أن اليهود

متميزين مختلفين فى صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين بهم وأينما كانوا، وبالتالى يؤلفون عبر العالم وحده جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح . واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية . وبين الأنثروبولوجيين ، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول ، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى .

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا باعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد ، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى الى أى حد تتفق مع ذلك النمط الأبوى الأصلى القديم. وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التى تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسابانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التى يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم ، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما . وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط .

الاجماع بين الانثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول الى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين ، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ، ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية ، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسى لليهود فى قليل أو كثير .

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة، فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود الى عصر سليمان وبعده ، وتشير الي سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس . وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التى تحدد كل الجماعات والعناصر التى ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التى لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين . فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوروبيين من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبدو العموريون طوال الوجوه ، ببشرة مصفرة وأنوف محدبة ، ويبدو الساميون - الذين يشملون لاشك الكنعانيين - بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب

والعراقيين اليوم . وعلى هذا يمكن القول أن يهود فلسطين أيام داود كانوا سمر البشرة من سلالة البحر المتوسط ، على عدة أنماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه أقنى الأنف . وإذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر الاعداد الإسرائيليين بالمقارنة إلى العموريين أبناء أناك بأنهم asgradsshoppers in their own sight

ويعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما وهم العموريون والحيثيون . فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى الموريين (الشعب الأحمر) عرقا «نورديا» أشقر ، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم . ويبدو أن أصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayees وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرءوس ، وإليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم ، ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن jensen.

وهاتان النظريتان : اللتان كان هادون من أنصارهما ، يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدأون فى موطنهم الأول وهم مختلطون ويمثلون أكثر من نوع أو نمط جنسى محليا ، وبالتالى يمكن على أساسهما تفسير اختلافات الصفات الجنسية

ليهود اليوم داخل حدود نظرية النقاوة الجنسية . غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا ، ولا كان الحثيون أرمينيين بصورة ما بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط مهم لليهود بهم .

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك استمرارا نقيا لبنى إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين . ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها ، ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نقول أن أى جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صادقا يهود فلسطين أيام المسيح . ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التى يتفق الجميع على أنها ظلت فى فلسطين كطوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أى مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودى الفلسطينى الأصلى القديم .

هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أى أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق . هم متوسطو الرءوس الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من

المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة . وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة فى أوائل هذا القرن - أى قبل هجرة الصهيونية - فالقامة قصيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا ، والأنف الأقني يسود بين نحو ٨٠٪ من العينة المدروسة . أما الشقرة فلا وجود لها .

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن . ونستطيع إذن أن ننطلق في جولتنا حول العالم لنقارن اليها صفات يهود اليوم . ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الأكثر شيوعا في التصور الدارج عن اليهود ، ولكن الأقل مغزى في الدلالة الانثروبولوجية ، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر ، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة .

من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصير القامة ، إن لم يكن حقا كالقزم أحيانا . وهذا صحيح علميا – أو بالدقة كان – الى حد كبير . فالدراسات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا أقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله ، وفى المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكى ، وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا – كما كانت الحال فى بولنده فى القرن الماضى – يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل . ولا تكاد تعرف الانثروبولوجيا استثناء لهذه القاعدة الا حالات نادرة : ففي يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين من التاجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد أن اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس

وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة على أى مستوى .

هل يمكن أن يعد قصر القامة أذن صفة جنسية أصلية من المركب اليهودي ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم إشارة التوراة الى الظاهرة . فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة ، لأنه برغم سيادة القصر فان هناك تفاوتا محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة ، وكذلك يتراوح أشكناز أوروبا فيما بينهم كثيرا . ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء ان القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ، وراثية جامدة وأغلب الظن أن قصر قامة اليهودى هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد . كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج - الزواج المبكر جدا - بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الانحطاط الجسمى انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فان قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة في أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة .



طفلان يهوديان

عدا القامة الضئيلة ، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر . والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل ، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا . والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف فى هذا الصدد . ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة الى جانب الحرفة ، فالحرف الداخلية التى فرضها الجيتو على اليهودى ، لاسيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعية الأحذية .. الخ ، ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك الظاهرة . ولذا فانها - كالقامة - لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصلية لا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الأصول الوراثية لليهود وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .

وننتقل بعد هذا الى جانب يبدو على السطح أثر خطورة ومغزى ، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو «السحنة» .

ثانيا : فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف تقليديا بالسمرة والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة ، أى برونت) ، ثم بالأنف الأقنى الضخم ، والعيون المنتفخة ، والشفاة الممتلئة أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك «نظرة يهودية»

أو «سحنة يهودية» بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل . فما مدي صحة هذه الأفكار الدارجة ، وما قيمتها في تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟

أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين ، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد ، وفى أجزاء كثيرة من أوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحيانا الى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل . (ونسبة السمرة دائما أعلى - بالمناسبة - بين اليهوديات منها بين اليهود) . ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الي خمسى اليهود ذوو شعر فاتح . كذلك فمن الثابت ان هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين ، يجنح بهم الى اللون الأصهب Rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر . وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا الى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة ، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى . فمن حيث الشعر والعين ، لا نجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز

تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥٪ ، ترتفع الى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥٪ سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوروبا تهبط نسبة السمر الى ٥٥٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠٪ والباقى لون فاتح ، حتى إذا ما وصلنا الى يهود ليتوانيا كان ٥٥٪ من لون فاتح فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد . ويرى كون أن أشكناز أوروبا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التى يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود أميل الى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التى تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فان اليهود تميل الى أن تكون أكثر شقرة . وسواء اتفق هذا الرأى مع معامل الارتباط الواضح في السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشيء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا .

أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة . فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة . وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم . اما فى اليمن فهم أن بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذلك إلا لحياتهم فى الظل بعيدا عن

العمل فى الخلاء . أما فى أوروبا فلا يختلف الاشكناز عن الأوروبيين فى لون البشرة .

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة «اليهود السود» الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهود الى أشكناز وسفارديم وشرقيين . من هؤلاء فلاشة Falasha فى شمال الحبشة ، وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة ، ومنهم كذلك فى أفريقيا الدجاتون Deggatuns فى جنوب الصحراء الكبرى أما فى أسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند ، وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم «اليهود البيض» الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشتات الأولى . وربما جاز لنا أن نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين .

ننتقل الآن الى الأنف . فأما الأنف الأقنى المحدب – الذى الصق باليهودى وأشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : «الأنف اليهودى» فليس فى الحقيقة صفة يهودية ، فالملاحظات الأنثروبولوجية تتثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه على ٩٪ من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا إلى ٣٠٪ . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف «اليهودى» إلا بين ١٥٪ من

ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الأكثر حدوثا بين اليهود فهو الأنف المستقيم كما فى يهود شمال افريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم ، مثلا بين يهود اليمن ٦٠٪ أنوف مستقيمة . بل وهناك نسبة من الأنف المقعر . وبين اشكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الأنف المستقيم فى حين يقل الأنف المحدب عن النصف دائما . بل أن الأنف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجع نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الأنف المحدب كثيرا ، بينما فى ليتوانيا تصل نسبة الأنف المقعر إلى ٥٠٪ ويختفى الأنف المحدب كلية .

ومن الناحية الأخرى ، فالأنف الأقنى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلثي العينة فى جنوب شرق بولندا ، وهو منتشر كثيرا بين العرب والأفغانيين وكثير من الأوروبيين .. الخ . ونحن أقرب إلى الصحة - فيما يرى كون - حيث نصف الأنف الأقنى «بالأنف السامى» منا إذ نصفه «بالأنف اليهودى» ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول إن تسمية الأنف اليهودى بالسامى خطأ شائع وأنه فى الحقيقة من أصل أرمينى .

وأيا ما كان ، فالذى يميز الأنف اليهودى حقا إنما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل أنخفاض أو تدلى طرف الأنف مع أرتفاع جناحى المنخرين حتي ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى

بالتالى إلى ظهور قصبة الأنف مرئية بوضوح . والظاهرة ككل يمكن أن تسمى «بالمنخرة Nostrility» وتقرب بروفيل الأنف كثيراً من رقم ٦ الأفرنجى مد ذيله . وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الأنف فى حين أنه مستقيم فى الواقع . ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لايوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم . وفى النتيجة فان من المستحيل أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الأنف ، ولايعرف اليهود وحدة أنفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

تبقى العيون . الحاجبان ، اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما ، أميل عادة إلى أن يقتربا بعضهما من بعض . أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين أشكنازيم أوروبا العيون «المائية» الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التى - كما يعبر ريلى - تعطى شعورا إما بالحزن أو النظرة الحالمة وإما بالخبث المكتوم . على أن المهم أنه ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فان مايقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة إن لم تكن مقلوبة حقا ، ليس شائعا أو شرطيا بين اليهود .

يبقى الآن مايقال عن «سحنة يهودية» بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لايمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا ولكن الحق علميا أنها لاتوجد عند كل اليهود ، فهى إن كانت موجودة بين

بعض الأشكناز فى أوروبا فانها لاتكاد تعرف فى أشكناز أمريكا ، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود . ومن ثم فهى كثيرا ماتخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهودى على أنه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى . وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم ، فان من الصعب تحديدها وقياسيها .

ولكن الأهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية ، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الأخطار المستمرة حتى لقد أسماها البعض «تعبير الجيتو» إنها باختصار من فعل الأنتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا ، تثبتت عن طريق التزاوج الداخلى والأنتخاب الجنسى والأنتخاب الاجتماعى والمهنى . ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فإنما هى مجرد إرث الأضطهاد الدينى أيا كان الأصل الجنسى والسلالة العرقية ودون أن تعنى أن صاحبه من نسل بنى إسرائيل التوراة بالضرورة .

تلك إذن مجموعة من الصفات الجسمية المنسوبة إلى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لاتدل على الأصل العرقى ولا تحسم مشكلة . وهى إن دلت على شىء فانما تدل على إنعدام أى وحدة بين يهود العالم

فى تلك الصفات . إن لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أى على الأختلاط الجنسى وأمتزاج الدماء . ولكنا نفضل أن نؤجل هذا الكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية . فنصل الآن إلى الصفات الجنسية التى تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعا ، ترتبط مباشرة بالوراثة بالبيئة ، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا إلى الأصول الأولى ومقياسا ومحكا للنقاوة أو الخلط . إنها لاشك شكل الرأس .

كما رأينا فان يهود بنى إسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرءوس أساسا . فإذا ما وجدنا رءوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة إلا تفسيرا واحدا وحيداً لا سبيل إلى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة . هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أى مجموعة من اليهود لاتنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرءوس ، لان تزاوج طوال الرءوس بطوال الرءوس لاينتج إلا طوال رءوس مثلهم . فكيف إذن رصدنا شكل الرأس عند اليهود فى مسح عام ؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز والسفارديم والشرقيين ، يقع الأشكناز جميعا بين عراض الرءوس ، وأحيانا بين عراض الرءوس جدا ، هكذا هم في كل أوروبا والعالم الجديد ابتداء

من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث تصل نسبتهم الرأسية إلى مثل ما للألمان الجنوبيين والفرنسيين الألبيين ،. بل أهم من هذا أنهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليا ويقتربون جدا من شكل ونسبة رأسهم . فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شكل الرأس ، بينما فى منطقة القوقاز تتحول رءوسهم إلى شكل «قمع السكر» الشهير عند الأرمنيين والقفقاز ، بل نجده حتى فى يهود التركستان .

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى أوروبا يقلون فى نسبة عرض الرأس - وإن يكن قليلا جدا ، درجة أو اثنتين - عن السكان المحيطين ، كما أن وجوههم أقل استعراضا أو أكثر استطالة نوعا ما . ولهذا ينتهى كون إلى أن اليهود قد حققوا أيضا فى مجال شكل الرأس توازنا ثابتا كما فعلوا فى لون الشعر . هذا عن الاشكناز .

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا أن السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم ، أى طوال الرءوس جميعا ، ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغى ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم ، ولكن منهم جماعات استعرضت رءوسهم كما فى شمال ايطاليا حول تورينو وغيرها ، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان . ومع ذلك يمكن بصورة عامة جدا أن تقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور .

هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج أن يغير من شكل رءوسهم وإنما على العكس يؤكده . غير أن مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة ، وأقرب بذلك - هكذا يقول كون - إلى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة .

يبقى اليهود الشرقيون . هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالأحرى يقعون فى حدود التصنيف . فجزء منهم طوال الرءوس كالسفارديم ، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب ايران . وهنا أيضا يلاحظ أن السكان المحيطين طوال الرءوس ، إلا أن أبعادهم المطلقة أى حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة وبالأخرى من اليهود .

أما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رءوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال ايران ، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها ،وأخيرا اليهودى القرائين فى القرم وليتوانيا . ففى كل هذه الحالات يعيش اليهودى فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رءوسهم بشدة حتى لايختلفون عنه البتة . إلا أن هناك فارقا فى شكل الوجه - لا الرأس - فهو يميل نوعا إلى الإستطالة بينما هو عريض بين

السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر إلى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة ، والسامرة . ومع ذلك فهو أقل ميلا إلى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان .

من هذا المسح السريع نصل إذن إلى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس فى مجموعتين : عراض رءوس وطوال رءوس . والمجموعة الأخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين ، أما الأولى فتضم النصف الأخير – الشرقى أو الشمالى – من اليهود الشرقيين بالإضافة إلى كل الاشكناز . ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير ، تزيد مجموعة عراض الرءوس على ٨٠ – ٩٠٪ على الأقل من كل يهود العالم ، والأقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس . ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرءوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرءوس ، ابتداء من وسط أوروبا حتى وسط آسيا ، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق .

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الأغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت إلى عراض الرأس بعملية استعراض Brachyce-phalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا Alpinisa - tion Dinaricisation وذلك عن طريق واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود ، بينما الأقلية التى

أحتفظت بطول رأسها الأصلى لايتحتم بالضرورة أن تكون قد أفلتت من مثل الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة إلى الأدلة التاريخية . وهذا ما ينقلنا إلى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط ، شواهدها وأدلتها ، أبعادها ومغزاها .

نقاوة أم اختلاط :
يهود تأوربوا أم أوروبيون تهودا ؟

حسنا ، بأى مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة ، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية ؟ الشىء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من «طابع» أو «سحنة» مميزة هو أمر لاينكره العلم تماما ، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى ، وليست صفة جنسية دالة ولا تعنى البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة . بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة، وتنافر مطلق فى الأصل الجنسى .

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرءوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية Etjnic unitقائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة ، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين . وبالمثل يصور اليهود الاشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة أنثولوجية أخرى . ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوروبا يمكن بسهولة أن

تلتقط من بين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الأنواع والسلالات . وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفرادا يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير Snuoوعظام الوجنة البارزة بدرجة لاتفرقهم عن جماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفرادهم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون .

ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالكموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات . فى الصفات الجنسية . فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى. واليهود الملونون فى الهند ، بل والصفر أحيانا فى التركستان ، وأخيرا اليهود الشقر فى أوروبا . أو كما لاحظ دالبى Dalbyفى أواخر القرن الماضى هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود – البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الاشكناز ، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم ، ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف المقعر بين كثير من يهود الروسيا ، ثمة العيون اللوزية فى «السفارديم والمكتنزة الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا .



يهود من العالم العربى

وبعامة فان السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز أشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فان الدراسات السيرولوجية أثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا فى فئات الدم مما ينفى تجانس الأصل ، وأكثر من ذلك لاتبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، مما يؤكد عمق إنفصالهم جنسيا عن الأصل القديم.

واضح تماما إذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق ، وأن اليهود لايعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض «خرافة» كما يعبر ربلى . والواقع أن هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط ، موضع جدل بين العلماء . فكما قال رينان من قبل ، أن المغزى الثنولوجى لكلمة يهود – على الأقل فى شرق ووسط أوروبا – قد آنتهى منذ أمد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أى شىء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ربلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد «ناس» بكل بساطة .

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن الأوربيين We europeans» وهم جوليان هكسلى وهادون وكارسوندرز : «ونحن نعتقد أنه على صواب . إن اليهود لايمكن أن

يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية - دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والأرمنى وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسمية» . ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين «إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الأغلب ، فانهم بالتأكيد يبدون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدون من الصفات «السامية» وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم» .

ومن بعد ربلى ومن بعد معلقيه أيضا يقرر هوتون Hooton بجزم قاطع : «حقيقة هى لاشك أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعة متنوعة» . وهو إذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية ، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن إلى حد ما كل أولئك . ويؤكد اشلى مونتجيو Mon-tagu ashley نفس الأنتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة أثنولوجية بل ، باصطلاحة مجرد «معزولة حضارية Cultural isolate.

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ، وما هى الأدلة والشواهد التاريخية عليه ؟ لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس

على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج . ولكن الواقع التاريخى اليقينى كما سنرى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما . كذلك فانهم يتخذون من أسماء الأشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج ، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين .. الخ تشير إلى نسل الكوهانيم أو الكوهانين Cohanimأبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب . ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الأخرى ، فان أسماء يهودية أصلية وبحتة هى اليوم من أكثر الأسماء شيوعا بين الملايين من المسيحيين فى أوروبا . فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتجول؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه أيضا إنتهازى ومغرض بوضوح ، ولذا لايمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه . ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى ألمانيا . فلما كان كل شىء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية . أما الآن بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما !

ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الإنقلاب الإنتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الألمان أنفسهم ! ولاشك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التى نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيورات تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم «غرباء بين كل الأمم» !

التزاوج والتحول اذن حقائق لاشك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الانثروبولوجيين ابتداء من كين إلى ربلى إلى كون .. الخ . فهذا كين يتكلم عن «الزيادات الضخمة من (الجنتيل) المتحولين» ، ويقول «إن الأفتراض بأن اليهود ضموا قليلا أو لاشىء من المتحولين هو إفتراض لم يعد بعد مقبولا» ويضغط مؤلفو «نحن الأوروبيين ، خاصة على نقطة مهمة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه إلى التحولات الضخمة إلى اليهودية أما ربلى فيقرر أنه ليس ثمة أيسر من اثبات الاختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل فى أوروبا وخارج أوروبا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لانتظار اليهودية وتمددها : التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزاوج والامتزاج

الدموى . وللتحول شكلان رئيسيان : التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخياً أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرائين فى طوروس.

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان . أما التزاوج فشكلاه الزواج . العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية. وكُتّاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية. وعلى آية حال فلا شك فى أن اليد العليا كانت دائما للتزاوج، هادئا ودفينا ومزمنا. وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل إلى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد، فإذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب.

أدلة الاختلاط التاريخية

فى ضوء هذه الأسس العامة، نود الآن أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه، ماذا تقول وكيف تحكم فى قضية الاختلاط والتحول. فإذا بدأنا عرضنا التاريخى من البداية، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال: «أمك كانت حيثية، وعموريا كان أبوك»). وهذا الاختلاط الجنسى كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه فى قلبها الوعر المعزول. وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات «وثنيات» من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن إلى تلك السهول المجاورة. كذلك فمن الثابت إبان الأسر البابلى الذى استمر ١٤٠ عاما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة.

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا، بحيث ينتهى إذا تحول الجنتيل إلى اليهودية، والواقع أنه فى أيام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا، كما حدث فيما بعد، هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود أنطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين إلي عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم، وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول إلى اليهودية بلا شك فى القرن الثانى

الميلادى. ومن الأمثلة المهمة أن النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كإماء وأخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم إلى مواقع أخرى، فشب أبناؤهم كيهود.

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى، فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم إزاء اختيارين: إما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد، وإما أن يحتفظوا بديانتهم. وهناك ـ كما يقول بيرجل ـ «أصبح الكثيرون، ربما الأغلبية، وثنيين، وذلك لأن من بين القبائل الأثنتى عشرة عِشرا «مفقودة» كما تحدثنا الروايات». وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا إلى جنب مع كيانهم الدينى، ويصبحون جزءا لايتميز عن الأمة التى أقاموا بينها. أما إذا ظلوا على يهوديتهم، فإنها إذن العزلة الاجتماعية، ومن ثم فلا تزاوج إلا إذا تحول الوثنيون إلى اليهودية، وهذا بالدقة ماحدث مرارا وتكرارا لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسى. إلا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول إلى اليهودية صعبا، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف.



راقصة يهودية من تركيا



مجموعة من يهود الأرجنتين

أمـا فى العـصـور الوسطى حـيث أصـدرت المجـالس الكنسـيـة قرارات صـارمـة بمنع زواج المسـيحيين باليهود كمـا فعل مـجلسـا توليدو عـام ٥٣٨، ٥٨٩، ومجلس رومـا عـام ٧٤٣، فإن أغلب الكتاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصل إليه بالفعل. بل أن اضطهاد القوط الغربيين فى أسبانيا لليـهود فى القـرن الخـامس والسـادس الميـلاديين إنما يرجـع ـ كمـا يؤكـد كين ـ إلى نشـاطهم التـبـشـيـرى الخطير وإلى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين.

وثمـة أدلة أخرى على الاختـلاط والتـحول على نطاقات إقليمـيـة كبيرة، فـالسفـارديم قبل خروجـهم من أسبـانيا كـانوا قد استـوعبـوا دمـاء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقـهم. وفى شمـال افريقـيا من المؤكـد ـ كمـا رأينـا ـ أن اليـهودية كـانت قوية الانتشـار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الإسلام مباشرة. وفى المغرب يبدو اليهود المتكلمـون بالبـربرية اليـوم مـخـتلفين بشـدة عن يـهـود السـفـارديم المتكلمين بالأسبـانية فى المدن المغربية بينمـا كـان اليـهود المتكلمين بالعربية فى المدن نفسـهـا ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحـد أهمـه بلا شك العنصـر البـربرى. أمـا فى أوروبـا فـالأدلة التـاريخـيـة تشير بكل قوة إلى أن أجداد الأشكناز اختلطوا مع أبناء غرب أوربا إلى مـاقبل الحـروب الصليـبيـة الأولى اخـتـلاطا أقـوى من اخـتـلاط أجدادهم الأحدث مع أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة، فغزارة

شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس، إلى جانب عرض الرأس، تدل على تأثير جنسي ألبي فرنسي أو ألماني أكثر منها مؤثرات سلافية.

أما عن التحول، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين، خشية تحولهم إلى اليهودية ثم الزواج بهم، إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات، وأن التحولات «بالآلاف» كانت مستمرة وفضلا عن هذا، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من إمكانية التهود والزواج من اليهود. وفى أسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول إلى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان.

أما فى عصرنا الحديث فتتوافر الأدلة والأحداث الثابتة التى تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء. فمع الهجرة إلي العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية إلى اليهودية ـ ولاعلاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا. ومع اختفاء التعصب الدينى فى أوروبا الصناعية، وأكثر منه مع العلمانية المطردة، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية. وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد

قلت، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء مؤشرا فى ذلك الاتجاه: مثلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية. وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم إلى المسيحية.

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوروبا ماكشفت عنه تجربة النازية فى ألمانيا. فقد كان على المرء الذى يبغى إثبات الدم الآرى فيه أن يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية ـ يعنى هنا اليهودية بالتحديد ـ ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين «إلى أقصى حد» ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية! ـ تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل..

وفى الأعوام الماضية فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الأنساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة فى العالم الغربى من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء... الخ. كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى، وبالعكس فإن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية. أما فى الولايات المتحدة، حيث أعظم مستعمرة

لليهود اليوم، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة والعلاقة الجنسية غير المشروعة ووجود أنصاف وأرباع اليهود... إلخ، لاسيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا.

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى أخرى لا تقل أهمية ومغزى، تلك أعنى ظاهرة نوبان أو انصهار اليهود واندماجهم أو امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة Assimilation، وموقف الصهيونية السياسية منها. فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا، وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر البحار، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، لاتزيف حقائق التاريخ الواقع فقط، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى إلى تجميد تطور المجتمع الإنسانى. فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع إلى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع إلى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب إحساسهم المتضخم بأنفسهم وإدعاءاتهم بالتفوق الموهوم، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الإقطاع والحكم الأوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا

الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم إلى مزيد من الإصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم.

وهى - الصهيونية - ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية، كلها طفرات جديدة وخطيرة «تهدد» بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول أنفسهم وانتفاء التضاد السادى - المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا.

ومن هنا تصل الصهيونية فى انحرافها إلى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد أسطورته إلى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل أخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود، وفى تحول بعض اليهود إلى عقائد أخرى، ولئن كان هذا اليوم أوضح وأخطر مايكون فى بوتقة الولايات المتحدة، فإن أوروبا الغربية تعرفه أيضا بدرجة أو بأخرى. والخط التاريخى الذى أكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن

اليهود ونوبانهم جنسيا، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية، بل ويفرض نفسه أكثر منه في أى وقت مضى.

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة. الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية، كما فى الولايات، فكثيرا مايتزوجون من الجنتيل، فإذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الأبناء يهودا وظلت الأسر يهودية. أما إذا تحول الطرف اليهودى إلى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك إلى اليهودية، وإلا فإن الأسرة اليهودية تنقرض فى النهاية، غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود إلى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا. وهكذا فإن التحول الدينى يؤدى فى النهاية إلى التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكى.

والإحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود. فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة، ووجد بحث آخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١,١٪ إلى ٦,٣٪ بين ١٩٠٠، ١٩٤٠، أى أنها وصلت إلى ضعف التقدير الأول، والواقع أن اليهود

أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية. وإلى جانب ذلك فإنهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض. بل أشد انخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى.

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فإن يهود أمريكا لابد أن يتناقصوا عدديا سواء على الإطلاق أو بالنسبة إلى مجموع السكان. ومع تسارع وإطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقص من أن يشتد ويشتد، ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة «ظاهرة عابرة» فى نهاية المطاف، ولا يؤخر اختفاؤهم النهائى إلا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر، ولا سبيل إلى الشك فى صحة هذه النبوءة العلمية، فالصهيونية نفسها على وعى تام بها، وهاهى ذى جولدا مائير أعلنت أخيرا فى صرخة محمومة أنه فى خلال جيل أو اثنين سينقص يهود الولايات المتحدة إلى ١,٥ مليون نسمة، لقد شهد شاهد من أهلها ـ أقصد اعتراف متهم من عصابتها.

لن يجدى إذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا إزاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لامكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو، وأين؟ ـ فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين

أعصارها فى الغرب الأوروبى والأمريكى! وإذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود إلى اليهودية، فإن عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود إلي غير اليهودية!

من هنا نفهم كيف أن الصهيونية «تتاجر» بالفعل فى الاضطهاد، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها، وتراه ضمان بقائها، فى الوقت الذى تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد. بل إن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية إلا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير. فهى وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوييم وتضادهم معهم: إنها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو. ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضي وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل إلى الأبد!.

وبعد، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميكانيزم العملية كلها؟ نعم، وجغرافى يهودى بالذات ـ هنتنجتون ـ وهو الذى يضعها بين أيدينا! فطوال التاريخ ـ كما يقول ـ نلمح ظاهرتين أساسيتين: أعدادا ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، وفى الوقت نفسه أعداد من اليهود لاتقل ضخامة تخرج من اليهودية.

وفى النتيجة فإن جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها. إنها عملية إحلال وإبدال مزمنة دائما، معدية أحيانا، ظاهرة ومستترة، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا، إنها تكاد تقول عملية «تغيير دم» كلية وشاملة.

وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئا مختلفا-انثروبولوجيا عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب. ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمحنا إليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات.

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان إلى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد مايكون الاختلاط، وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا، فإنما يدور حول المدي والدرجة وإلي أي حد. هنا نجد رأيين أساسيين: فيري ربلي أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم وأبرز مايتمثل هذا في شكل الرأس، الأساس الأنثروبولوجي الأول

والجوهر، ثم إلي حد ما في لون البشرة، وبناء علي هذا يقبل رأي لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا أريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير آخر إنهم أوروبيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا.

وإلي نفس المدرسة والرأي ينتمي مؤلفو «نحن الأوروبيين»: «إن اليهود - هكذا يؤكدون - من أصل مختلط، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا». ثم يضيفون: «كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التي أقاموا فيها.. بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان، وأن المجتمعات اليهودية أصبحت تشبه السكان المحليين في كثير من الخصائص. وبهذه الطريقة أصبح يهود افريقيا وشرق أوروبا وأسبانيا والبرتغال... إلخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض في النمط الجسمي».

ويؤكد الكتاب أنفسهم الفكرة فى موضع آخر قائلين: «والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها، وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعى - دينى أو شبه قومى أكثر منها كتعبير أثنولوجى فى أى معنى جينى (ولو أن هذا

لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهوم للكلمة). وكثير من الصفات «اليهودية» هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة».

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون إن «ما احتفظوا به وورثوه ليس «صفات جنسية» بل تقاليد دينية واجتماعية. فاليهود لايؤلفون جنسا محددا وإنما مجتمع يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس دينى قوى وتقاليد تاريخية خاصة. وأنه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن «جنس يهودى» تماما كما لو تكلمنا عن جنس آرى».

هذا عن الرأي الأول في اليهود. أما الرأي الثاني فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يري فيهم إلى جانب ذلك آثار الأصل الفلسطيني العبري القديم بخصائصه المتوسطة، وبخاصة في شكل الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير. ومن هذا المنطلق.

يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئة تحولوا الى اليهودية ، وإنما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الأصليين :

مثلا : يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا ، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلا يهود ولكن استعرضت رءوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوروبيين تهودوا وإنما يهود تأوربوا .. ويقدر كون - كمجرد تخمين بحت كما يعترف - أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطيني الأصلى فى يهود أوربا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها .

ومن هذا كله ينتهى الى أن اليهود «ليسوا مجرد كومة عشوائية Grob-dag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجى أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعى الراديو أو عاملات الحياكة» ! وقد يمكن أن نعد موقف هنتنجتون قريبا من موقف «كون» ، حيث يسمى اليهود - بلغته الخاصة - «مجموعة قربى Krth» شأنهم فى ذلك شأن البيوريتان أو الماورى أو الاغريق (كذا) . غير أننا نرى فى هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها ، ويكفى أن نتخذ من كون علما على الرأى ورمزا له .

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين - والفارق بينهما فارق كبير فى الدرجة يوشك أن يكون فارقا فى النوع ؟ هذا هو السؤال . المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض يهود العالم نسبة

ما من الأصل الفلسطينى القديم . ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة فى تلك النسبة . فالملاحظ أولا أن الفروق الجسمية التى يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا . وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الأجنبية الغربية قد غزت اليهود وداخلتهم – حتى ولو كانوا من أصل فلسطينى قديم – الى الحد الذى يقربهم – على الأقل – من هؤلاء الجيران، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق .

وليس من المتصور – أليس كذلك ؟– غير هذا بعد نحو ألفى سنة من التشتت والاختلاط ، لاسيما إذا تذكرنا – وهو اعتبار مهم للغاية – أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد على ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى ، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر ، وأن يهود العالم اليوم فى سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متجولين ..

ماذا يتبقى فيهم إذن من بنى إسرائيل التوراة أو من بنى إسرائيل التوراة فيهم ؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى إسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى أقصى حد . مثلا فى أواخر القرن الماضى يجد الانثروبولوجى

المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه «من بين يهودنا المحدثين نحو ٥٠٪ عراض الرءوس ، ١١٪ نوو بشرة بيضاء ، وما لا يزيد على ٥٪ يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامى القديم» . وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العالم الأخير فقط أنثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥٪ من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلثون أو مختلطون .

ولئن صح هذا – ولعله صحيح ، وهو بالتأكيد أقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات «كون» – فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية ، وأنهم بالفعل أوروبيون سلاف أو أريون أكثر منهم ساميين . وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوربا ، وعلى امتدادهم الأمريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الأمريكية ، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم – الأشكنازيم – هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا .

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتي لم تعد هذه تمثل في تكوينهم إلا قطرة في

محيط. وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخطيط ، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان أقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالاشكنازيم ، غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هي أن الأقل تخليطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن الأصول الأولي يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا في النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل ، وأن هؤلاء شيء وأولئك شيء آخر أنثروبولوجيا ، ولا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين فقط .

أفكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح . فأولا ، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شيء ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشى ، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة ، فى تسمية اضطهاد اليهود «بضد السامية» ، فنحن فى الحقيقة ازاء «ضد اليهودية» ببساطة وبلا تعقيد . وإذا كان الألمان يتكلمون عن ضد السامية Anti Semit-mus وكراهية اليهود Judenhetze كمترادفين ، فإن التعبير الآخر الى الحقيقة العلمية من الأول ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة أنها تعتمد على أسس أو مداورة الإنجيل والتوراة التى تسبق بكثير التغير الجذرى والاحلال والابدال المطلق الذى لحق بدماء اليهود . والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية ، وإنما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة .

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أي دعوي قرابة دم بين العرب واليهود: قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة - وإنما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من

الأصول العليا التي تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل إنه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوه غير أشقاء وكلاهما ابنا إبراهيم - ولكن في البداية فقط تصدق هذه الاخوة علي نسليهما ، أما بعد ذلك فقذ ذاب أحدهما في دماء غريبة ووصل الذوبان الي حد الاحلال حتي أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن اسماعيل . ولا يمكن بعد أن اختفي يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب ! وغير هذا - حتي لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الي فيصل آل سعود - ليس إلا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك ! .

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوروبيين والأمريكيين ، بل هم فى الاعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما ، وأن اختلف الدين . ومن هنا اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين . أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء في منفي ودخلاء بلا جذور فذاك في بيت العرب

وحـده، فى فلسطين حـيث لا يمكن لوجـودهم الا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثرويولوجيا وغير انثرويولوجي .

وانطلاقـا من هذا يسـقط كـذلك أي ادعـاء سـيـاسي للصهيونيـة في «أرض الميعاد» . فبغض النظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على أى أساس تاريخى أو دينى ، فان الانثروبولوجيا تبدد أى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد . فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجرد طائفة دينية تتـألف من أخـلاط من كل الشـعـوب والقوميات والأمم والأجناس . ومن ناحية أخري فلا علاقة لهم جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوروبيون أو الأمريكيون بالنسبة اليها . وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الأبن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وانما هى غزو الاجنبى الغريب بالاثم والعدوان .

وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهاء الأخير ، ينبغى أيضا وفى النهاية أن نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية ليست هى القضية الفلسطينية . ولكنها تشبهها أو بالاحرى تشبه بها ، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة «الصهيونية السوداء» . فالأخوة الافريقيون فى صحوة

نهضتهم الحديثة قد وجدوا - كإرث من عصر الرقيق - قطاعا منهم خارج افريقيا فى العالم الجديد يعيش فى أدنى السلم الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية . ومن ثم نادى بعضهم - جارفى والجارفية Garvey بالعودة الى افريقيا الأم كحل لمشكلتهم فى أمريكا . وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة ، فقد كان أثيرا لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية : فجعلوا تهجير الرقيق الافريقى الى العالم الجديد هو الخروج الأسود Black Exodus الشتات الأفريقى A. Diaspora وجعلوا افريقيا الأم هى «أرض الميعاد» و«الوطن القومى» ورؤيا العودة هى «الصهيونية السوداء» .

والذى يعنينا هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وإنما أن ننبه أصدقاءنا الافريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه . فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة افريقيا ، فان الأغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى إسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان لزنوج أمريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العودة الى افريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة الى فلسطين . ومن ثم فلا مجال ولا وجه للتشبيه بالصهيونية . بل إنه لتشبيه يسىء الى فكرة العودة الافريقية أكثر مما يفيدها .

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به الى زنوج
الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على
حركتهم العادية الغاصبة . إنه إذن تشبيه غير موفق ، وهو غير
صحيح الى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخير لأصدقائنا الافريقيين وخير
قضيتهم وقضيتنا معا أن يسقطوه والفكرة الخاطئة التى تكمن
خلفه.

- M.F. Ashley Montagu, Introduction to Physical Anthro- Pology, Springfield, 1951.
- W alter Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946.
-Adolphe Landry, Traite de Demographie, Paris, 1949.
- W.F. Ogburn, M.F. Nimkofff, A.Handbook of Sociology, London., 1953.
- P. Sorokin, Contempory Sociological Theories, N.Y. & Lond.,1926.
- George Adam Smith, Historical Geog. of the Holy Land, N.Y. 1932.
- نجلاء عز الدين : العالم العربى ، القاهرة (مترجم) .
- جمال حمدان : المدينة العربية ، القاهرة .

المصادر :

- W . Z Ripley, The Races of Europe, Lond., 1900.

- C.S Coon, The Races of Europe, N.Y., 1939.

- Julian Huxley, A.C. Haddon, A.M. Carrsaunders,
We Europeans, Pelican, 1939.

- J. Deniker, Les Races et les Peuples, Paris, 1926.

- Egon E. Bergel, Urban Sociology, Mcgrew Hill, 1955.

- Ellsworth Huntington, Palestine and its Transforma tion, Boston,1911.

- The Pulse of Progress, N.Y., 1926.
Mainsprings of Civilization, N.Y., 19245.

- C.S. Coon, Have the Jews a Racisl Identity in Jews in : a Gentile World, ed. Graeber & Britt N.Y., 1942.

- Y.M. Goblet, Political Geography and the world Map, Lond., 1955.

- A.C. Haddon,The Races of Man, Cambridge, 1924.

ملحق لتحديث كتاب د . جمال حمدان

تتسم كتابات الدكتور جمال حمدان بعمقها الفكرى وأطروحاتها ذات المقدرة التوليدية العالية .. ولذا فقيمتها الفكرية والمنهجية تظل باقية ، وان تغيرت بعض الحقائق والمعلومات . إذ تظل نماذجه التحليلية التفسيرية التصنيفية هى القيمة الأساسية التى تركها لنا وهى التى نتعلم منها كيف نفكر ونفسر ونصنف .

ومع هذا فمن المفيد لقارىء هذا الكتاب المرجع أن يعرف الصورة العامة لأعداد اليهود فى العالم ومسار هجراتهم حتى عام ١٩٩٥ ، وهكذا ما يحاول أن يزوده هذا الملحق به ولنلاحظ انه رغم تحديث الأرقام فإن النموذج التصنيفى العام لم يتغير والذى ينطلق من رؤية الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات بشرية يسرى عليها ما يسرى على غيرها من قوانين ، أى أنها لا تشكل شعبا مختارا أو عصابة إجرامية .

تعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم وبعض المعالم السكانية فى الوقت الحاضر ١٩٩٢

Worldwide Number and Distrbution of the Jewish Communities and Some Demogaphic Features at the Present

يقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧بنحو ١٣ مليونا «٦٠٠ ، ٩٣٤ ، ١٢» وصل إلى ٨٠٠ ، ٩١٣ ، ١٢ عام ١٩٩٢ «حسبما ورد فى الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى لعام ١٩٩٤» . وهو يقل قليلا عن عددهم فى عام ١٩٨٢ ، والبالغ ٦٠٠ ، ٩٨٨ ، ١٢ أو عددهم فى عام ١٩٨٤ وهو ٣٠٠ ، ٩٦٣ ، ١٢ «وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر فى النمو» وقد تناقص هذا العدد عن عددهم فى عام ١٩٦٧ حيث كان ٥٠٠ ، ٨٣٧ ، ١٣ أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى ، والجماعات اليهودية موزعة فى الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية فى كل أرجاء العالم على النحو التالى :

أوروبا «بما فى ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا»	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا «فلسطين المحتلة أساسا»	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا اساسا)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية «الولايات المتحدة أساسا»	٦,٤٠٩,٧٠٠
استراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكبر توسع جماعات يهودية هي :

الدولة	نسبتهم الي يهود العالم	عدد أعضاء الجماعات اليهودية
الولايات المتحدة	٤٣,٥٪	٥,٦٢٠,٠٠٠
إسرائيل	٣٢,٨٪	٤,٢٤٢,٥٠٠
فرنسا	٤,١٪	٥٣٠,٠٠٠
روسيا	٣,٢٪	٤١٥,٥٠٠
كندا	٢,٨٪	٣٥٦,٠٠٠
بريطانيا	٢,٣٪	٢٩٨,٠٠
أوكرانيا	٢,١٪	٢٧٦,٠٠٠
الارجنتين	١,٦٪	٢١١,٠٠٠
جنوب أفريقيا	٠,٨٪	١٠٠,٠٠٠

وإذا نظرنا الى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية ، فإن الصورة سوف تختلف

تماما ، فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيونى ، فإن أعضاء
الجماعات اليهودية يتركزون أساسا فى أمريكا الشمالية حيث توجد
أغلبيتهم الساحقة التى تبلغ «٤٦,٢٤٪ وفى أوربا الغربية حيث
تبلغ ١٤,٩٪ وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥,٣٪ أى أن ٦٩,٨٪
من يهود العالم باستثناء فلسطين المحتلة يوجدون فى أمريكا
الشمالية وأوربا ، ويعيش معظمهم فى الوقت الحالى فى البلدان
الناطقة بالإنجليزية «الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا واستراليا
ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا» ولذا فإنه يمكننا أن نقول : إن اللغة
التى يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هى الانجليزية وليس
العبرية أو اليديشية .. ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية فى
أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتى وأوربا آخذة فى الذوبان وأن
عددهم فى أمريكا اللاتينية آخذ فى التناقص السريع .. ولذا
يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يقال له «الشعب اليهودى»
سيصبح جزءا لا يتجزأ من الشعب الأمريكى بعد أن كان جزءا لا
يتجزأ من التشكيل الاستيطانى الغربى ومن شعوب شرق أوربا
ونلاحظ فى الجدول السابق الذى يبين أكبر تسع جماعات يهودية
فى العالم أن ٩٣,٢٪ من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز
رئيسية بما فى ذلك الدولة الصهيونية ، وان ٧٦,٣٪ يعيشون فى
دولتين اثنتين «الولايات المتحدة وإسرائيل» ونلاحظ أن البلاد التى
يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشى

مرتفع ودخول مرتفعة ، كما انها تنتمى الى ما يمكن تسميته بالتشكيل العرقى الأبيض ، ففى الأرجنتين ، حيث توجد أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية توجد أيضا أعلى نسبة من اليهود .

وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥٪ من يهود العالم توجد فى أوربا ، وتوجد الأغلبية العظمى فى دول أستيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتان تضمان ٥,٩٧٦,٠٠٠ «٤٦,٢٧٪ من يهود العالم» وإسرائيل التى تضم ٤,٢٤٢,٥٠٠ «٣٢,٨٥٪ من يهود العالم» . وجنوب أفريقيا التى تضم ١٠٠,٠٠٠ «٠,٨٪ والبرازيل والارجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢,٠٠٠ «٢,٩٪» ويمكن أن نضيف كذلك استراليا ونيوزيلندا التى تضم ٩٤,٦٠٠ «٠,٧٪» أى أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا ، إذ يوجد فى هذه البلاد ٩١٪ من يهود العالم ، وكذلك فان الدياسبورا اليهودية ، أى انتشار اعضاء الجماعات فى أنحاء العالم ليست ، انتشارا عشوائيا ، وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى خصوصا فى جانبه الاستيطانى ، وبالتالى ، فإن اسرائيل لا تشكل استثناء من القاعدة بل هى جزء من نمط غربى عالمى ، وارتفاع الدخول ليس منفصلا تماما عن العنصر

الاستيطانى اذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساسا الى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية ، وكانت إحدى أهم المشاكل هى الفائض البشرى . وقد كان المجتمع الغربى ينظر الى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الاطار .

وفيما يلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم فى الوقت الحاضر حسب احصائيات ١٩٩٢ .

الأمريكتان :

١ – الشمالية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠ .	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

٢ – الوسطى

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الانتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢,٣
بنما	٢,٥٦٢,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢,٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠,٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١,١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠,١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	–
فيرجن ايلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢,٨
كوبا	١٠,٧٠٩,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠,٤
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	–
المجموع	١٥٦,٣٨٩,٠٠٠	٥١,٧,٠٠	٠,٣

٣ - الجنوبية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الارجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروجواى	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧,٦
باراجواى	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلى	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٣٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع	٣٠٨.٦٤٧.٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١,٢
المجموع الكلى للأمريكتين	٧٥٠,٦٢١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

استراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استراليا	١٧.٨٤٣.٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥,٠
نيوزيلاندا	٣.٤٨٧.٠٠٠	٤,٥٠٠	١.٣
بلاد أخرى	٦.٦١٧,٠٠٠	١٠٠	–
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣,٤

آسيا:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦,٥

الدول الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى «سابقا»

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢,٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢,١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠	٣,٣
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠,٩
كازخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠,٨
قريفيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠,٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١,٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠,١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	–
هونج كونج	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	–
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	٠,١
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	–
المجموع الكلى للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١,٣

أفريقيا:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إثيوبيا	٥٤,٦٢٨,٠٠٠	١,٥٠٠	–
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٣٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢,٥
زائير	٤١,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوى	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧,٩٩٠,٠٠٠	٢٠٠	–
المجموع	٦٦,٨٥٧,٠٠٠	١٠٦,٧٠٠	١,٦

أوربا

الجماعة الأوربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
اسبانيا	٣٩،١٥٣،٠٠٠	١٢،٠٠٠	٠،٣
ألمانيا	٨٠،٦٠٦،٠٠٠	٥٠،٠٠٠	٠،٦
أيرلندا	٣،٤٨١،٠٠٠	١،٨٠٠	٠،٥
ايطاليا	٥٧،٨٢٦،٠٠٠	٣١،٠٠٠	٠،٥
البرتغال	٩،٨٧٠،٠٠٠	٣٠٠	—
بلجيكا	١٠،٠١٠،٠٠٠	٣١،٨٠٠	٣،٢
الدنمارك	٥،١٦٩،٠٠٠	٦،٤٠٠	١،٢
فرنسا	٥٧،٣٧٩،٠٠٠	٥٣٠،٠٠٠	٩،٢
لكسمبورج	٣٨٠،٠٠٠	٦٠٠	١،٦
المملكة المتحدة	٥٨،٠٣٩،٠٠٠	٢٩٨،٠٠٠	٥،١
هولندا	١٥،٣٧٠،٠٠٠	٢٥،٦٠٠	١،٧
اليونان	١٠،٢٠٨،٠٠٠	٤،٨٠٠	٠،٥
المجموع	٣٤٧،٢٩١،٠٠٠	٩٩٢،٣٠٠	٢،٩

باقى دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢,٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠,٣
النرويج	٤,٢١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠,٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠,٠٠	٠,١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١,٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفييتى «سابقا» :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢,١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢,٨
روسيا البيضاء	١٠,٢٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤,٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥,٢
ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١,٧
مولدافيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣,٥

أوربا الشرقية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٣٨,٥١٨٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تركيا «بما في ذلك المناطق الآسيوية»	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	—
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
يوغسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠	٠,٦
المجموع الكلي لأوربا	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويلاحظ أنه يوجد دولتان اثنتان «الولايات المتحدة وإسرائيل» تضمان الغالبية الساحقة ليهود العالم «٧٥٪» ولا يزيد عدد اليهود على نصف مليون إلا فى دولة واحدة هى «فرنسا» وينقص عن النصف مليون فى دولة أخرى «روسيا» وتوجد دولتان «جنوب أفريقيا والبرازيل» يزيد عدد اليهود فى كل منهما على مائة ألف .. وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفا والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفا ولا توجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٣٥ ألفا ففى بلچيكا يوجد ٣١ر٨٠٠ وفى ايطاليا ٣١ر٠٠٠ وفى أوروجواى ٢٣ر٨٠٠ وفى رومانيا ١٦ر٠٠٠ .

ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمى أيضا الى التشكيل العرقى الأبيض أو التشكيل الاستيطانى ذى الجذور الغربية .. البيضاء .. والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لا يوجدون فى العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد ، وأن وجودهم فى بعض الدول أقرب الى الغياب ولا يمكن أخذه فى الاعتبار من الناحية الاحصائية ، كما هو الشأن مع معظم الأقليات الدينية والاثنية فى العالم ، فلا يمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودى فى الهند حيث لا يوجد بها إلا نحو ٤ر٥٠٠ يهودى ، أو الوجود اليهودى فى اليونان حيث يوجد ٤ر٨٠٠ يهودى ، أو بولندا وفيها ٣ر٦٠٠ يهودى ، أو النرويج التى فيها ألف يهودى ، أو زائير التى

فيها ٤٠٠ يهودى أو الفلبين وفيها ١٠٠ ألف يهودى أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة الى سكان العالم ، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان فى الدول التى يوجدون فيها. فأكبر تجمع يهودى فى العالم فى الولايات المتحدة لا يشكل سوى ٢ر١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧ر٨٤٠ر٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢ .. وثانى تجمع يهودى فى العالم كان يتركز فى الاتحاد السوفييتى «سابقا» وهو بدوره لا يشكل سوى ٠٧ر١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧ر٥١٦ر٠٠٠ . أما فى كندا ، فإن النسبة هى ٢٨ر١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦ر٧٥٥ر٠٠٠ . وتقل النسبة في البلاد الأوربية الأخرى ، فهم في فرنسا مثلا لا يشكلون سوى ٩٢٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧ر٣٧٩ر٠٠٠ أما فى انجلترا فإنها ٥١ر٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨ر٠٣٩ر٠٠٠ وفى روسيا ٢٨ر٠٪ من مجموع ١٤٩ر٠٠٠ر٠٠٠ ، وفى أوكرانيا ٥٣ر٠٪ من مجموع ٥١ر٩٠٠ر٠٠٠ .

ولا يشكل اليهود أغلبية إلا فى إسرائيل وحدها ، ومع هذا فإنهم يحسون باحساس الأقلية نظرا لوجودهم فى صورة مجتمع استيطانى منعزل داخل الكثافة السكانية العربية ولخوفهم الدائم من

العرب الموجودين فى فلسطين ، وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة .. وتكاثر العرب فى مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين ، وعقم الأنثى اليهودية فى إسرائيل ، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب ، وهذا ما يسمى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التى تستحق الإشارة ، تركز اليهود في العواصم والمدن الكبرى ، فالواقع أن أكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية «٢٠٠ ألف» يوجدون فى بوينس أيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا «٦٢ ألفا» يوجدون فى جوهانسبرج ، وأكثر من نصف يهود فرنسا «٣٥٠ ألفا» فى باريس ، وأكثر من نصف يهود إنجلترا «٢٠٠ ألف» يوجدون فى منطقة لندن الكبرى ، وأكثر من نصف يهود هولندا «١٥ ألفا» فى أمستردام ، وأكثر من نصف يهود كندا في مونتريال «١٠٠ ألف» وتورنتو «١٧٥ ألفا» وثلث يهود روسيا «٢٠٠ ألف» يوجد في موسكو . أما الولايات المتحدة فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك «الكبرى» ٤٥٠ر٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠ر٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤ر٠٠٠ وشيكاغو «الكبرى» ٢٤٨ر٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨ر٠٠٠ وواشنطن «الكبرى» ١٦٥ر٠٠٠ وميامى ١٩٩ر٠٠٠ والواقع أن توزعهم على كل هذه المدن بدلا من تركزهم في العاصمة هو

انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة . وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز في كثير من البلاد في العاصمة ، فإن النصف الثاني يوجد موزعا على مدن كبرى أخرى ، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية توجد في مراكز حضرية . وهذا أمر متوقع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية ومهاجرون الى البلاد التي يوجدون فيها . والمهاجرون يتركزون عادة في المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل ، وحيث توجد مراكز التجارة والمال ولم يكن الحال مختلفا في العالم العربي ، فقد تركزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تركز يهود مصر في القاهرة بحي المعادي وحي الظاهر وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم ، فمثلا يوجد في القاهرة والإسكندرية عدة معابد ، ويقع أحد معابد القاهرة في شارع عدلي على مقربة من البنوك ومراكز التجارة . كما يوجد معبد يهودي في الإسكندرية في شارع النبي دانيال على مقربة أيضا من بنوك الإسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة في مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية . وفي تصورنا أن هذا الوضع هو نتيجة للاستعمار الغربي وللهجرة الاشكنازية الى العالم الغربي في أواخر القرن الماضي والتي وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية في بلاد المتوسط «مصر والجزائر

والمغرب ولبنان وسوريا» بميسمها بحيث تحول أعضاء الجماعات الى جماعات وسيطة للاستعمار الغربي .. كما يلاحظ «مثلا» أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الاشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقي القبلي وبوجودهم في الجبال . أما في العراق فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات لم يستقروا في المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتركزوا في العاصمة وفي أعمال التجارة والمال بالذات .

ولم يشذ سكن التجمع الاستيطاني الصهيوني عن هذا الاتجاه . ففي إسرائيل يتكدس ٧٥٪ من المواطنين في المدن .. ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لايزال آخذا في التناقص وهو ما يطلق عليه ظاهرة «موت الشعب اليهودي» .

وحينما وصلت الإحصائيات بتعداد اليهود في العالم عام ١٩٩٥ وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيرا عنها عام ١٩٩٢ .

وفيما يلى بعض التغيرات الأساسية .

الدولـة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥ر٦٢٠ر٠٠٠	٥ر٨٠٠ر٠٠٠
إسرائيل	٤ر٢٤٢ر٥٠٠	٤ر٤٢٠ر٠٠٠
فرنسا	٥٣٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠
روسيا	٤١٥ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦ر٠٠٠	٤٤٦ر٠٠٠
الأرجنتين	٢١١ر٠٠٠	٢٥٠ر٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠ر٠٠٠	١١٤ر٠٠٠
المجـر	٥٦ر٠٠٠	٨٠ر٠٠٠
مولدافيا	١٩ر٤٠٠	٤٠ر٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦ر٠٠٠	٣٤ر٠٠٠
أوروجواى	٢٣ر٨٠٠	٣٠ر٠٠٠
إيـران	١٦ر٠٠٠	٢٥ر٠٠٠
آذربيجان	١٢ر٠٠٠	٢٥ر٠٠٠

ويمكن القـول أن التـغـيـرات فى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة وإسرائيل لا يعتد بها ، ولكن الزيادات فى البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة ، فزيادة ٧٠ ألفا فى فرنسا «أى بنسبة ٢ر١٣٪» و٤٠ ألفا فى الأرجنتين «بنسبـة ٤٨ر١٨٪» و٢٣ ألفا فى المجـر «بنسـبـة ٩ر٤٢٪» و١٤ ألفا فى جنوب أفريقيا «بنسبة ١٤٪» وتسـعـة آلاف فى إيران «بنسبة ٥٦٪» ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام في هذه البلاد

في السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذي استخدمه الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى «وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية» ومصدر تعداد عام ١٩٥٥ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودى العالمى .

ولا ندرى هل ينطبق نفس التفسير على الزيادة الملحوظة فى دول الاتحاد السوفييتى سابقا «دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول» إذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا زيادة كبيرة ١٨٥ ألفا «حوالى ٤٤٪» وزاد يهود أوكرانيا ١٧٠ «حوال» ٦١٪» وزاد يهود مولدوفيا ٢١ ألفا «أكثر من ١٠٦٪» بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٢ ألفا «أى بنسبة ٢٦٪» .

وهناك احتمال أن تكون قد بدأت حركة عودة من الدولة الصهيونية كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستوانيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وطنوا فيها باعتبارهم عنصرا روسيا استيطانيا ، ولعل أعداداً منهم بدأت هى الأخرى فى العودة – وهناك بطبيعة الحال مشكلة من هو اليهودى ومن يضم فى التعداد ومن يستبعد .

وعلى كل فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولا تغير من الأنماط العامة التى درسناها .

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث

Migration of Memebers of theJewosh Communities in Moden Times

تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة في أوربا لثلاثة أسباب أساسية :

١ – شهد عصر النهضة البدايات الحقيقية للانقلاب التجارى الرأسمالى بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية: اسبانية وبرتغالية ثم هولندية وانجليزية . وكانت اسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيهما أما هولندا وانجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظرا لحاجتهما الى أيد عاملة ورءوس أموال وخبرات تجارية ، ثم تبعتهما فرنسا .. وقد أدى هذا الوضع الى تدفق المهاجرين اليهود الى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد .

٢ – كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التى أدت الى سقوطها فى نهاية الأمر ، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود .

٣ – وفى تلك المرحلة ، كان معظم يهود أوربا مركزين في بولندا التي شهدت ثورة الزعيم الشعبى الأوكرانى بوجدان شميلنكى عام

١١٤٨ والدي قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد الاحتلال البولندى ، وضد النبلاء البولنديين «الشلاختا» المستفيدين من هذا الاحتلال وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين . وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها .

وقد أدى تزامن هذه الأحداث «طرد اليهود السفارديم من شبه جزيرة أيبريا ، ثم اهتزاز الأساس الأقتصادى والسياسى لليهود الأشكناز فى بولندا مع فتح أبواب الهجرة الى أوربا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية فى طور الجمود» الى تغيير مسار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا ، وظهور النمط الحديث أى هجرة اليهود من البلاد المتخلفة في شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة فى وسطها وغربها وإلى العالم الجديد . والهجرة اليهودية فى العصر الحديث هى أساسا جزء من حركة الاستعمار الاستيطانى التي بدأت فى القرن السادس عشر ، خصوصا التشكيل الأنجلوساكسونى «بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الأسبانى ثم الهولندى» وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام . ومع هذا ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١ - تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية . وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا بلغت أكثر من ٨٠٪ .

٢ - الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها ، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمركتهم» وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التى احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود .

٣ - كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية مالية تعمل بالتجارة والمال ، وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين ، والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ومن ثم فهو مجتمع له جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون الى الولايات المتحدة ، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما : شرق أوربا

«روسيا – بولندا» كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كقوة جاذبة ، وقد كان النمط الأساسى القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبرطوريات . الكبرى «الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية» أما في العصر الحديث فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة الهيودية ، وقد تطور الأمر بعض الشىء بعد ذلك فى منتصف القرن العشرين .

ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوربا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامى ، كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا إلا أن النمط الأساسى الذى اشرنا إليه سائداً وتمثل إسرائيل نقطة مبهمة فهى مصدر طرد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون ، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق حيث إنها تحقق حراكا اجتماعيا كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول الى الولايات المتحدة أو أولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها .

ويمكن تقسيم هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث الى المراحل التالية :

أ – المرحلة الأولى : ابتداء من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

وهى مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية فى أوربا ، وهذه هى الفترة التى شهدت توطين السفارد من يهود المارانو فى هولندا وفرنسا ، وانجلترا ، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية الى العالم الجديد . وكانت الهجرة تتبع النمط التالى : تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد «عادة من كبار المولين وعائلاتهم» تلحق بهم أعداد ضخمة من الأشكناز ، كما حدث فى أمستردام بعد استقلالها عن أسبانيا وكما حدث فى انجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا ، وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أمستردام من ٢٠٠ سفاردى فى عام ١٦٩٠ الى ٢٤٠٠ سفاردى و٢١ ألف اشكنازى فى عام ١٧٩٥ . أما لندن ، فقد كان يوجد فيها في عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفارديا و٢٠٢ من الاشكناز ، ومع حلول عام ١٧٢٠ زاد عدد الاشكناز على عدد السفارد وفى عام ١٨٠٠ كان يوجد ألفا سفاردى ، وحسب بين العشرين ألف يهودى . ولم يستوطن أى عدد يذكر من اليهود فى فلسطين فى تلك المرحلة.

ب – المرحلة الثانية : من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ .

وهى المرحلة التى وقعت فيها الحرب النابليونية والاضطرابات السياسية التى أعقبتها ، الأمر الذى تسبب فى هجرة بعض

الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا الى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة واستراليا وغيرها . ولم يزد عدد المهاجرين اليهود الى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠,٠٠٠ ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب من بينها أن الانفجارات السكانية التي حدثت بين يهود اليديشية فى شرق أوربا ، والتى أدت الى تزايد أعدادهم بين عامى ١٨٠٠ و١٩٣٢ بنحو ستة أضعاف ، لم يكن قد ظهر أثرها بعد ، كما أنها وصلت الى ذروتها ، بعد عام ١٨٨٠ ، وفضلا عن ذلك كان معظم يهود العالم مركزين فى شرق أوربا وروسيا وبولندا التى كان قد تم ضمها الى روسيا ، ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد ، مما كان يعنى أنهم لا يزالون جماعة متماسكة تصعب على أعضائها الحركة ، كما كان كثير من اليهود لا يزالون يلعبون دورهم الاقتصادى التقليدى كجماعة وظيفية . وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة فى روسيا ، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التى بدأت تفقد شيئا من تماسكها وبدأ يختفي كثير من مؤسساتها التقليدية التى تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين فإن هذا لم يتسبب فى أى هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محاولات التحديث في الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعصر بعد – وقد كان الاقتصاد الروسى قادرا على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن

إقامتهم الأصلية ، ولذا ، فقد كانت هجرة اليهود داخلية ، من المناطق الكثيفة سكانيا ، فى منطقة الاستيطان الى روسيا الجديدة على شواطىء البحر الأسود كما هاجرت أعداد صغيرة الى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة يهود المناطق البولندية.ضمتها ألمانيا «١٧٧٢ – ١٨١٥» وفى بروسيا بالذات ، كان يوجد فى عام ١٨٣٧ نحو ٣٦٤ر١٤٥ يهوديا ٧٠٪ منهم حوالى «١٥٢ر١٠١» كانوا فى المناطق البولندية ، أى أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مركزين هناك . ولكن مع عام ١٨٧١ ، تناقص عددهم عن طريق الهجرة الى ألمانيا ذاتها ، وأصبحت نسبة اليهود فى المناطق البولندية ٨ر٣١٪ ثم انخفضت فى عام ١٨٩٠ إلى ٨ر٢٤٪ وإلى ٤ر١٧٪ فى عام ١٩١٠ . وقد اتجه هؤلاء اليهود الى برلين التى ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٨٩ر٤٧ فى عام ١٨٧١ الى ١٤١ر١٨١ فى عام ١٩٢٥ ، وقد ساهم هذا الارتفاع في تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودى ومحاولة سيطرة اليهود على كل شىء .

جـ – المرحلة الثالثة : من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ .

وهى مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية ، والتى بدأت فى عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد العنصرية في كل أوربا وانتهت فى عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤ ، التى

حدث من هجرة يهود شرق أوربا ، ثم بالكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماما .

ووفقاً لإحصائيات الموسوعة اليهودية ، بلغ عدد المهاجرين فى هذه الفترة أربعة ملايين ، في حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك ، فهو يرى أنه فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٠ هاجر نحو ٣٫٩٧٥٫٠٠٠ فإذا أضفنا إلى ذلك وفقا لليستشنكي الرقم ٥٠٧٫٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٩ ، فإن العدد الكلى يصبح ٤٫٤٨٢٫٨٤٥ ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الامبراطوريات العظمى فى أوربا ، الأمر الذى قد يصل بالعدد إلى خمسة ملايين وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق «جاليشيا وبكرفينا وبوزنان» إلى الغرب وحدث نفس الشئ فى ألمانيا، أما فى روسيا فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب إلى أديسا مناطق البحر الاسود ، وكان عدد اليهود الذين انتقلوا فى هذه الفترة من بلد أوربى إلى آخر هو -٣٥٠ ألفا ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفا .

كما شارك فى حركة الهجرة من القرية إلى المدينة ، فزاد عدد يهود فيينا «بلدة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية» على سبيل المثال من ستة آلاف فى عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفا فى عام

١٨٩٠ وإلى ١٩١٠ ، وهى زيادة تمت أساسا عن طريق الهجرة حيث أن معدلات الزيادة الطبيعية كانت أخذة أنذاك فى التناقص .

وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ثم توقفها تقريبا ، وهو ما انعكس فى شكل الاضطهاد الروسى القيصرى ضد جميع الاقليات فى الإمبراطورية . لذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثا عن مجالات جديدة للتحرك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية ، وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية ، ويهود روسيا على وجه الخصوص حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و ٨٠٪ من جملة يهود العالم ، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو ما يعنى أن نصفهم تقريبا، أى واحد من كل اثنين ، كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وهذه نسبة عالية للغاية ولا شك أنها اسهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر ، ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين فإنها كانت أقل من الأيرلنديين وقد كان عدد الأيرلنديين فى عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان انجلترا ، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامى ١٨٣٠ ، ١٩٠٠ .

وهاجر معظم اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ ، وإلى عام ١٩١٤ ، خصوصا الأربعة عشر عاما الأخيرة منها، تذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ ٢٫٧٥٠٫٠٠٠ فإذا انقصنا من هذا العدد حوالى ٢٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالى ٤٩٠ ألفا ، يكون عدد المهاجرين الى خارج القارة هو ٢٫٥٥٠٫٠٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفا وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ - ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده ، لكن الهجرة توقفت فى أثناء الحرب. وعند فتحها فى عام ١٩٠٧ تدفق السيل مرة أخرى إذ هاجر فى ذلك العام وحده ١٤١ ألفا.. ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة فى العام التالى، الأمر الذى أدى إلى تغيير الصورة.

وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه، وفى هذه الفترة، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها فى أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت فى حاجة ماسة إلى الأيدى العاملة التى لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية وقد استوعبت الولايات المتحدة بنحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل واستوعبت نفس النسبة تقريبا من جملة المهاجرين فى العالم. ولاتوجد سجلات بأعداد المهاجرين

اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداء من عام ١٨٩٩.

وقد هاجر من روسيا فى خلال ستة عشر عاما «١٨٩٩- ١٩٢٤» نحو مليون ونصف المليون يهودى، وفيما يلى جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها فى الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤.

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧.٤١٥	١٩٠٧	١٤٩.١٨٢
١٩٠٠	٦٠.٧٦٤	١٩٠٨	١٠٢.٣٨٧
١٩٠١	٨٥.٩٨	١٩٠٩	٥٧.٥٥١
١٩٠٢	٥٧.٦٨٨	١٩١٠	٨٤.٢٦٠
١٩٠٣	٧٦.٢٠٣	١٩١١	٩١.٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦.٢٣٦	١٩١٢	٨٠.٥٩٥
١٩٠٥	١٢٩.٩٠٠	١٩١٣	١٠١.٣٣٠
١٩٠٦	١٥٣.٧٤٨	١٩١٤	١٣٨.٠٥١

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ١.٥١٢.٦٣١.

ويعد عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفا وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين فى الولايات المتحدة بشكل دائم، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ فى مقابل ٣٠.٧٦٪ من بقية الجماعات المهاجرة، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لا تزيد على

٧٪ وكان المهاجر اليهودى يصل إلى الولايات المتحدة ولديه النية فى الاستقرار الدائم، وليس ادخال بعض الأمور ثم العودة إلى الوطن الأم، ومن ثم فقد كان يحضر معه أسرته، وكانت توجد نسبة عالية من النساء والأطفال فكانت نحو ٤٤٪ من جملة المهاجرين اليهود من الاناث فى مقابل ٣١.٧٪ بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة الأخرى. وكان ٢٤٪ من المهاجرين اليهود أطفالا تحت سن الثالثة عشرة أما فى الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢.٤٪ وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل إلى ٦٦٪ من الأجراء ، على عكس الإيطاليين، والأيرلنديين كانوا من أصول فلاحية، ويحسب إحصائيات الهجرة الأمريكية (١٨٩٩-١٩١٤) كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١٪ من جملة العمال الصناعيين، وكانوا يشكلون أحيانا الأغلبية المطلقة فى بعض الفروع مثل صناعة الملابس.. وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٢.٦ مقابل ٢٨.١٪ بالنسبة إلى جملة المهاجرين وكان عدد العاملين فى صناعة الملابس ٣٩.٦٪ وفى الصناعات الأخرى ٢٦٪ «أى ٦و٦٥٪ من الأجراء» فى مقابل ١٧.٨٪ بين غير اليهود. كما أن ٢و٩٪ من المهاجرين اليهود كانوا يعملون فى التجارة والنقل مقابل ٦.٧٪ من جملة المهاجرين وقد ساهم ذلك فى سرعة اندماجهم فى المجتمع وتحقيقهم حراكا اجتماعيا أعلى مما حققته

كثير من جماعات المهاجرين الأخرى، وهذا هو الذى ساهم فى نهاية الأمر فى «أمركتهم» الكاملة وفى تمركزهم فى صناعات بعينها دون غيرها، وكان التركيب الاثنى للمهاجرين اليهود فى خلال الفترة بين أعوام ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلى حسب بلد الأصل:

روسيا	٧١.٧٪	بريطانيا العظمي	٤.٠٪
الإمبراطورية	١٦.٢٪	كندا	١.٢٪
النمساوية والمجرية		ألمانيا	٠.٧٪
رومانيا	٤.٢٪	بلاد أخري	٢.٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضا. وقد توقفت الهجرة فى أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكنها فتحت أبوابها مرة أخرى فى عام ١٩١٤، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلا ثم اخذ فى الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة فى عام ١٩٢١ ثم انخفض فى أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بسبب نظام النصاب، وفيما يلى بيان بأعداد المهاجرين.

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦ ٤٩٧	١٩٢٠	١٤.٢٩٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	١٩٢١	١١٩.٠٣٦
١٩١٧	١٧ ٢٤٢	١٩٢٢	٥٣.٥٢٤
١٩١٨	٣.٧٦٢	١٩٢٣	٤٩.٧١٩
١٩١٩	٣.٠٥٥	١٩٢٤	٤٩.٩٨٩

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ٣٥٢.٣٢٤.

ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هى فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضا، ولابد أن ندرك أن حركة اعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية، لخوفها على أمنها الداخلى، وليهود الغرب المندمجين، الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية.

وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه. ومن هنا كان تبنيهم لما نسميه «الصهيونية التوطنية» ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بانجلترا التى اتجه اليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥. وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية. وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار

الهجرة اليهودية بعيدا عن إنجلترا ابتداء بمشروع شرق افريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك، مروراً بقانون الأجانب فى عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه»، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين إلى أرض يلقى فيها الفائض البشرى اليهودى - كما كان يطلق على المهاجرين اليهود أنذاك.

ولم يتجه إلى ألمانيا فى نفس الفترة سوى مائة ألف يهودى، ولكن هذا لايتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية وهم من يهود اليديشية غير المندمجين وبالتالى، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وببث السموم عن خطر التكاثر اليهودى والهيمنة اليهودية وفى وقت كانت أعداد اليهود أخذه فى التناقص الفعلى، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية فى انجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين، فإن هذا الحل لم يكن متاحا لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا، ولهذا تخلص منهم بإبادتهم.

ونلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان فى بداية الفترة ١.٨٠٦ وبلغ ٨.١٧٥ فى عام ١٩٢٣، إلى بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية، ثم قفز العدد إلى ١٣.٨٩٢ فى عام ١٩٢٤، وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام

١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وهو أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ما تسمح به ومقدرتها الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا واستراليا، وقد أدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستطانية، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة، ولعل أكبر مثل على محاولة لدول الغربية للحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولا قانون النصاب فى عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون فى عام ١٩٢٤، حيث لم يكن يسمح - بحسب هذا القانون - إلا بهجرة ما يساوى نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة وفق إحصاء عام ١٨٩٠ وقد عرفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الأنتماء الدينى أو الإثنى. وكان العدد المسوح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠.٣٤١ فى مقابل نحو ٥٠ ألفا فى عام ١٩٢٤، و١٥٢.٧٤٨ فى عام ١٩٠٦ وكانت أعداد المهاجرين فى تلك الفترة كما يلى:

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	١٩٣٠	١١.٥٢٦
١٩٢٦	١٠ ٢٦٨	١٩٣١	١١٩.٦٩٢
١٩٢٧	١١.٤٨٣	١٩٣٢	٢.٧٧٥
١٩٢٨	١١.٦٣٩	١٩٣٣	٣.٣٧٢
١٩٢٩	١٢.٤٧٩		

أى أن الهجرة بلغت الحد الأقصى المسوح به حتى عام ١٩٣٠ وهكذا فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠، وقد أغلقت كثير من البلاد أبوابها، كما يقول روبين، أصبحت معظم البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٢، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المتسعمرة)، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية أى بيئة قانونية وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا. وبالفعل وقفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ فى عام ١٩٣١ إلى ١٢.٥٥٣ فى عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧.٣٣٧ فى عام ١٩٣٣ ولذا يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة ومع هذا يلاحظ أنه فى الفترة من عام ١٩٢٦

إلى عام ١٩٣٠، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحا، هاجر إليها ٧٢.٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢.٨٠٨ (أى ٤٢٪) ولم يهاجر فى نفس الفترة سوى ١٠.١٧٩ إلى فلسطين.

وعلى الرغم من تباكى الدول الغربية على مصير اليهود، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم. كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من العقيدة الصهيونية التى تدعو إلى توطين اليهود فى فلسطين – وفلسطين فقط ومن هنا، كانت الجهود المكثفة للصهاينة من أجل إفشاء مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين وفض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ما سميناه «الصهيونية البنيوية» وفى الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨، والتى يمكن أن تسمى المرحلة النازية، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا والبلاد التى يهيمن عليها النازيون والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفا، خلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفيتى إبان الحرب لإنقاذهم، وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفييتى فرارا من النازى وقد هاجر ٢٥٠ ألفا (أى ٤٦٪) منهم فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١١٠ آلاف (أى ٢٠٪) وهاجر فى الفترة من عام ١٩٤٠ إلى ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودى، ومنهم ١٢٠ ألفا (أى ٤٠٪) إلى فلسطين والباقون، وهم ١٨٠ ألفا (أى ٦٠٪)، وهاجروا إلى بلاد

أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١٢٥ ألفا (أى ٤٢٪) وهكذا أصبحت الولايات المتحد، مرة أخرى، بلد الجذب الاكثر، حتى فى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية ويمكننا أن نقول أن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفييتى) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفا أى أنه على الرغم من شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها، فإن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين.

وفيما يلى جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية - حسب الموسوعة اليهودية - بين عامى ١٨٨١ و ١٩٤٨.

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١-١٩١٤	النسبة ٪	عدد المهاجرين ١٩١٥-١٩٤٨	النسبة ٪
الولايات المتحدة	٢.٤٠.٠٠٠	٨٥٪	٦٥٠.٠٠٠	٤١٪
كندا				
الأرجنتين	١٠٥.٠٠٠	٤٪	٦٠.٠٠٠	٤٪
بقية أمريكا	١١٣.٠٠٠	٥٪	١١٥.٠٠٠	٧٪
اللاتينية	١٤.٠٠٠	٠.٦٪	١٤٠.٠٠٠	٩٪
جنوب أفريقا	٤٣.٠٠٠	٢٪	٢٥.٠٠٠	١.٦٪
فلسطين	٧٠.٠٠٠	٣٪	٤٨٥.٠٠٠	٣٠٪
بلاد أخري	١٥.٠٠٠	٠.٦٪	١٢٥.٠٠٠	٨٪

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هى بلد الهجرة بلا منازع أو منافس وتشغل الأرجنتين وكندا المرتبتين الثانية والثالثة، ولا تأتى فلسطين إلا فى المرتبة الثالثة- وهى مرتبة ثالثة تجاوزا لأن مجموع عدد المهاجريم إليها أقل بكثير من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى. أما فى الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨، فإن الولايات المتحدة كانت لاتزال تشغل المرتبة الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية من المرتبة الأولى ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا فى خلال الفتيرتين هو تقريبا نفس عدد المهاجرين إلى فلسطين - لكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها، ومن عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٤٨، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين فى ذات الفترة وإذا استبعدنا الولايات المتحد، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفا فى مقابل ٦٨٢ ألفا هاجروا إلى بقية بلاد العالم، أى أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد وحتى فى الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨، وهى الفترة التى شهدت قمة النشاط الصهيونى، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية ، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر

أبوابها دون المهاجرين اليهود وذلك غير، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفا فى مقابل ٤٦٥ ألفا للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة، وكل هذه الإحصائيات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب اليهودى كما تدعى الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تحرز نجاحا فيما كانت تهدف إليه ويلاحظ أن كافة البلاد التى بها اليهود هى بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الإبيض ومن ثم، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ما هى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية.

د) المرحلة الرابعة: منذ عام ١٩٤٨ حتي الوقت الحاضر.

وبانتهاء الإربعينيات، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى، موجودة فى الولايات المتحدة، مع وجود كتلة أخرى فى أوربا أخذة فى التناقص، ومع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلد ومع هذا، تشكل دول أخرى مثل استراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود.

ويمكن أن نضيف بعدا آخر يساعد فى توجه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ألا وهو الميراث الاقتصادى للجماعات اليهودية كجماعة وظيفية تركز أعضاؤها فى قطاعات المال والتجارة. والواقع أن هذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية أو الاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات فتؤممها، أو تحاول صبغها بصبغة قومية، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية، ويمكننا فى واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر

الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعي وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسي من بلاد الاقتصاد الاشتراكي والفقر والثورات القومية الاشتراكية.

١- فمثلا يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتي على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتي بالنظام الاشتراكي الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى وفى نفس الإطار يمكن تفسير الظاهرة التي تسمى فى المصطلح الصهيونى «التساقط» أى خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد أخر هو الولايات المتحدة فى العادة. فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى، فى حين لا تشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة إليهم وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت النسبة وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية، بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشى مرتفع. وإذا نجح يلتسن فى تحقيق الاصلاحات الاقتصادية والانفتاح التجارى الذى يطمح إليه، فإننا نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعى ستتزايد أمامهم.

وبعد الانتفاضة الفلسطينية التى تخلق جوا من عدم الاستقرار السياسي، وصلت نسبة التساقط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠٪ من جملة المهاجرين، ومع هذا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتى واستيطانهم فى فلسطين ولكنهم على آية حال، يذهبون إلى إسرائيل بنية التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم فى الحراك الاجتماعى، وذلك عندما تسنح الفرصة.

٢- وقد ظل يهود ايران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ثم خرجوا من ايران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر وفى كوبا، كانت هناك جماعة يهودية، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العُشر، وذلك على الرغم من أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف فى طريق النشاط الصهيونى ولم تسئ معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية، ونفس الشئ يقال بالنسبة إلى يهود شيلى الذين تركوها حينما وصل ألیندی بتوجيهه الاشتراكى إلى الحكم، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية، فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجى معين وبعقلية تجارية محددة، وامتلاكهم لخبرات إدارية ومهنية مهينة، جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع

الجديد، فهم «ضحايا التأميم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى أمريكا اللاتينية، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات ونفس الوضع ينطبق على يهود جنوب أفريقيا، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة.

٣- وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات إلى عدد من الأسباب منها قيام الدولة الصهيونية وما خلفته من مشاكل لليهود العرب، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ومما لاشك فيه أن التحول البنيوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية، مثل المجتمعين المصرى والسورى، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة، قد ساهما بشكل عميق فى عملية خروج اليهود، التى لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم وإلى جانب هذا، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطا من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد أقل منه فى إسرائيل كما أن يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات

المتحدة ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى إسرائيل والتى تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم ومن ناحية أخرى، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب.

٤- وفى هذا الاذار، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدى إلى أى تحسن فى مستوى معيشتهم كما أن التجمع الصهيونى لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة.

٥- ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون مطلقا إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيرى - وإن كان يلاحظ أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة، وربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية فى انجلترا، فهى بلد ذات مستقبل اقتصادى مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة.

٦- بل ويلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة شكلت ما يسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها فى

بعض الإحصائيات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا.

٧- وفى نفس الاطار أيضا، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة، فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيرا.

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية أخذة فى النضوب، فأعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة) لايهاجرون، ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والإسلامى، فلم يبق سوى أفراد قلائل وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط، وكذلك عزوف اليهود عن الانجاب، فى تناقص العدد الكلى لليهود وبالتالى فى تناقص العدد المحتمل للمهاجرين، وهو ما يعنى أن الوقود البشرى للكيان الصهيونى لم يعد متوافرا بنفس الكثافة ولم يبق سوى الأحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى إلا أن خروج اليهود السوفييت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع لنفس النمط الذى اقترحناه: شرق أوربا كمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كمستورد لها ولكن، كما أسلفنا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا، إلى تحويل هذه الاعداد إلى إسرائيل.

وفيما يلى جدول الهجرات اليهودية منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٩٣

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٨٨٢–١٩٠٣	٢٠،٠٠٠–٣٠،٠٠٠					
١٩٠٤–١٩١٤	٢٥،٠٠٠–٤٠،٠٠٠					
١٩١٩–١٠٤٨	٤٨٢.٨٥٧	٤٠.٨٩٥	٤.٠٤١	٣٧٧.٣٨١	٧.٧٥٤	٥٢.٧٨٦
١٩١٩–١٩٢٣	٢٥.١٨٣	١.١٨١	٢٣٠	٢٧.٨٧٢	٦٧٨	٥.٢٢٢
١٩٢٤–١٩٣١	٨١.٦١٣	٩.١٨٢	٦٢١	٦٦.٩١٧	٢.٢٤١	٢.٦٥٢
١٩٣٢–١٩٣٨	١٩٧.٢٣٥	١٦.١٧٢	١.٢١٢	١٧١.١٧٣	٤.٥٨٩	٣.٩٨٩
١٩٣٩–١٩٤٥	٨١.٨٠٨	١٣.١١٦	١.٠٧٢	٦٢.٩٦٨	١٠٨	٤.٥٤٤
١٠٤٦–١٩٤٨	٥٦.٤٦٧	١.١٤٤	٩.٦	٤٨.٤٥١	١٣٨	٥.٨٢٨
١٩٤٨	١٠١.٨٢٨	٤.٧٣٩	٨.١٩٢	٧٦.٥٥٤	٤٧٨	١١.٨٦٥
١٩٤٩	٢٣٩.٩٥٤	٧١.٦٥٢	٣٩.٢١٥	١٢١.٩٦٣	١.٤٢٢	٥.٧٠٢
١٩٥٠	١٧٠.٥٦٣	٥٧.٥٦٥	٢٦.١٦٢	٨١.١٩٥	١.٩٥٤	٣.٦٨٧
١٩٥١	١٧٥.٢٧٩	١٠٣.٣٩٦	٢٠.٣٨٢	٤٧.٠٧٤	١.٢٨٦	٣.١٤١
١٩٥٢	٢٤.٦١٠	٦.٨٦٧	١٠.٢٨٦	٦.٢٣٢	٩٥٠	٢٧٥
١٩٥٣	١١.٥٧٥	٣.٠١٤	٥.١٠٢	٢.١٤٧	٩٣٠	٣٨٢
١٩٥٤	١٨.٤٩١	٣.٣٥٧	١٢.٥٠٩	١.٣٦٩	١.٠٩١	١٦٥
١٩٥٥	٣٧.٥٢٨	١.٤٣٢	٣٢.٨١٥	٢.٠٦٥	١.١٥٥	٦١
١٩٥٦	٥٦.٣٣٠	٣.١٣٩	٤٥.٢٨٤	٦.٧٣٩	١.٠٦٧	١.٠١
١٩٥٧	٧٢.٦٣٤	٤.٢٣٠	٢٥.٧٤٧	٣٩.٨١٢	١.٤١٠	١.٤٣٥
١٩٥٨	٢٧.٢٠٠	٧.٩٢١	٤.١١٣	١٣.٦٩٥	١.٣٢٠	٢٤١
١٩٥٩	٢٣.٠٠٠	٣.٥٤٤	٤.٤٢٩	١٤.٧٣١	١.١٤٧	١٣٧
١٩٦٠	٢٤.٠٠٠	١.٧٨٢	٥.٣٧٩	١٦.١٦٩	١.١٥٨	٢٠٤
١٩٦١	٤٧.٧٣٥	٤.١٤٩	٨.٠٤٨	٢٣.٣٧٥	١.٩٦٩	١٩٤
١٩٦٢	٦١.٥٣٣	٥.٣٥٥	٤١.٨١٦١	١١.٨٥٢	٢.١٨٧	٣٥٠
١٩٦٣	٦٤.٤٨٩	٤.٩٦٤	٣٨.٦٧٢	١٤.٢١٣	٦.٤٩٧	١٤٣
١٩٦٤	٥٥.٠٣٦	٥.٠٥٧	١٧.٢٤٠	٢٨.١٢٤	٤.٨٨	٣٢٧

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوربا	أمـريكا	غير معروف
١٩٦٥	٣١.١١٥	٥.٣٢٣	٨.٥٣٥	١٣.٨٧٩	٢.٠٩٦	٣٨٢
١٩٦٦	١٥.٩٥٧	٣.١٣٧	٣.٠٢٤	٧.٤٣٥	٢.١٣٢	٢٢٩
١٩٦٧	١١٤.٤٦٩	١.٩٨٧	٦.٢٦٨	٤.٢٩٥	١.٧٧١	١٤٨
١٩٦٨	٢٠.٧٠٣	٤.٦٧١	٧.٥٦٧	٦.٠٢٩	٢.٢٧٥	١٦١
١٩٦٩	٣٨.١١١	٧.٠١٨	٥.٩٢٦	١٥.٢٣٦	٩.٦٠١	٣٣٠
١٩٧٠	٣٦.٧٥٠	٦.٩٠٤	٣.٧٨٥	١٤.٤٣٤	١١.٤٠٥	٢٢٢
١٩٧١	٤١.٩٣٠	٥.٧٧٨	٢.٣٥٤	٢٠.٨٨٨	١٢.٨٨٥	٢٥
١٩٧٢	٥٥.٨٨٨	٣.١٤٣	٢.٧٦٦	٣٩.١٤٥	١٠.٨١٤	٢٠
١٩٧٣	٥٤.٨٨٦	٢.٠٢٥	٢.٨٣٩	٤٠.٤٩٢	٩.٥٢٢	٨
١٩٧٤	٣١.٩٨١	١.١٧٩	١.٢١٦	٢٣.١٢٦	٦.٤٣٩	٢١
١٩٧٥	٢٠.٠٢٨	٩٢٧	٦٨٩	١٣.٤١٧	٤.٩٨٩	٦
١٩٧٦	١٩.٧٥٤	١.١٣٥	٦٩٧	١٢.١٣٧	٥.٧٧٤	١١
١٩٧٧	٢١.٤٢٩	٩٠٨	١.٦٢٠	١٢.٦٦٠	٦.٢٠١	٤٠
١٩٧٨	٢٦.٣٩٤	١.٧٣٦	١.٦٨٣	١٦.٥٤٩	٦.٣٠٥	١٢١
١٩٧٩	٣٧.٢٢٢	٧.٠٨٧	١.٣٤٠	٢٢.٤٠٤	٦.٠٢٤	٢٧٦
١٩٨٠	٢٠.٤٢٨	٣.٢٠٢	١.٠٠٧	١١.٧٩٢	٤.٣٥٠	٧٧
١٩٨١	١٢.٥٩٩	١.٢١٥	١.١٧٠	٥.٩٠١	٤.٢٤٣	٦٢
١٩٨٢	١٣.٧٢٣	٩٥١	١.٥٥٥	٦.١٦٨	٥.٠٠٣	٠٤٦
١٩٨٣	١٦.٩٠٦	٨٤٤	٣.٠٩٤	٦.١٥٤	٦.٧٥٨	٥٦
١٩٨٤	١٩.٩٨١	٧٠٠	٨.٨٨٥	٥.٤٨٥	٤.٨٧٦	٣٥
١٩٨٥	١٠.٦٤٢	٦٠٧	٢.٣١٨	٣.٩٦٤	٣.٧٣٩	١٤
١٩٨٦	٩.٥٠٥	١.١٨٣	٩٨٢	٣.٦٧٥	٣.٦٣٤	٣١
١٩٨٧	١٢.٩٦٥	١.٨٨٨	١.٢٠٥	٦.٠٤٤	٣.٨١٢	١٦
١٩٨٨	٢٤.٠٥٠	١.٧٠٠	١.٣٣٤	٦.٠١٢	٣.٩٦٩	١٩
١٩٨٩	٢٤.٠٥٠	١٨٥	١.٨٦١	١٦.٧٦٦	٤.١٤٧	٩١

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	أسيا	أفريقيا	أوربا	أمريكا	غير معروف
١٩٩٠	١٩٩٬٥١٦	٩٤٠	٤٬٤٧٢	١٨٩٬٦٥٠	٤٬٣١٥	١٣٩
١٩٩١	١٧٦٬١٠٠	٦٢٢	١٬٢٥١	١٥٢٬١٤٢	٢٬٠٢٣	٦٢
١٩٩٢	٧٧٬٠٥٧	٨٩١	٤٬٠٧٥	٦٨٬٩٦٢	٣٬٠٠٦	١٢٣
١٩٩٣	٧٦٬٨٠٥	١٬٧٢٨	١٬٤٣١	٧٠٬٣١٥	٣٬٢٨٢	٤٨

ويمكننا الآن أن نتناول الهجرة اليهودية فى إطار الادعاءات الصهيونية التى هيمنت على العقل العربى والتى تذهب إلى أن اليهود يتوجهون إلى فلسطين كما سنحت لهم الفرصة، وأن بلاد العالم تمثل بالنسبة لهم أرض الشتات والمنفى، أما فلسطين فهى أرض الميعاد والعودة.. ولندع الأرقام تتحدث والجدول التالى يتناول هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وغيرها فى كل أرجاء العالم فى الفترة من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢.

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الارجنتين	البرازيل	أورجواى	الدول الاخرى فى الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الاخرى	الاجمالى
١٨٤٠–١٨٨٨	٢٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠	–	١,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٢١,١٠٠
١٨٨١–١٩٠٠	٦٧٥٠٠٠	١٠,٥٠٠	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	–	١,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	٧٦٤,٥٠٠
١٩٠١–١٩١٤	١,٣٤٦,٤٠٠	٩٥,٣٠٠	٨٧,٦١٤	٨٠,٧٥٠	–	٣,٠٠٠	٢١,٣٧٧	٣٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٠٢,٤٤١
١٩١٥–١٩٢٠	٧٦,٤٥٠	١٠,٤٥٠	٣,٥٠٣	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٩٠٧	١٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٨٩,٣١٠
١٩٢١–١٩٢٥	٢٨٠,٢٨٣	١٤,٤٠٠	٣٩,٧١٣	٧,١٣٩	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٤,٦٣٠	٦٠,٧٦٥	١٠,٠٠٠	٤٢٦,٩٣٠
١٩٢٦–١٩٣٠	٥٤,٩٩٨	١٥,٣٠٠	٣٣,٧٢١	٢٢,٢٩٦	٦,٣٧٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٤٤	١٥,١٧٩	١٠,٠٠٠	١٧٢,٩٠٨
١٩٣١–١٩٣٥	١٧,٩٨٦	٤,٢٠٠	١٣,٧٠٠	١٣,٠٧٥	٣,٢٨٠	١٥,٠٠٠	٤,٥٠٧	١٤٧,٥٠٢	٢٠,٠٠٠	٢٣٨,٢٥٠
١٩٣١–١٩٣٩	٧٩,٨١٩	٩٠٠	١٤,٧٨٩	١٠,٠٠٠	٧,٦٧٧	١٥,٠٠٠	٥,٣٠٠	٧٥,٥١٠	٦٠,٠٠٠	٢٦٩,٥٩٥
١٩٤٠–١٩٤٢	٧٠,٩٥٤	٨٠٠	٤,٥٠٠	٦,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٣٢,٣٥٤
المجموع	٢,٨٠١,٨٩٠	٢٢٣,٤٥٠	٢٢٣,٥٤٠	٧١,٣٦٠	٢٢,٣٢٧	٥٩,٠٠٠	٧٥,٧٦٥	٣٧٨,٩٥٦	١٣١,٠٠٠	٣,٩١٧,٣٨٨

يلاحظ من الجدول السابق أنه من مجموع ٣.٩١٧.٣٨٨ من المهاجرين لم يتجه سوى ٣٧٨.٩٥٦ إلى فلسطين فى فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وذلك برغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف، ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريبا لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى إمريكا اللاتينية فى نفس الفترة «٣٧٦.٢٢٧» بفارق ٢.٦٢٩ يهوديا، ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها، فسنكتشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠.٦٠١ فى مقابل ١٢٥.٩٤٤ إلى فلسطين. بل إن بلدا واحدا مثل الارجنتين هاجر اليه ١٩١و٥٥١ أى أكثر من كل الذين هاجروا إلي فلسطين فى نفس الفترة «وبحسب احصائيات وروبين، كان يوجد فى الارجنتين فى عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفا و٢٩١ ألفا فى أمريكا اللاتينية كلها» كما أن بلدا مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهوى فى عام ١٩٣٠ بينما كانت فلسطين لاتضم سوى ١٧٠ ألفا ولكن التحدى الأكبر لأرض الميعاد كان يأتى من البلد الذهبى أو «الجولدن مدينا» أى الولايات المتحدة. ففى الفترة التى نشير اليها، هاجر إلى الولايات المتحدة ٢.٨٠١.٨٩٠ فى مقابل ٣٧٨.٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين.

عدد المهاجرين اليهود إلى كل من الولايات المتحدة وفلسطين فى الفترة ١٩١٥ – مايو ١٩٤٨.

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	–	١٩٣٢	٣,٧٥٥	١٢,٥٥٣
١٩١٦	١٥,١٠٨	–	١٩٣٣	٢,٣٧٢	٣٧,٣٣٧
١٩١٧	١٧,٣٤٢	–	١٩٣٤	٤,١٣٤	٤٥,٢٦٧
١٩١٨	٣,٦٧٢	–	١٩٣٥	٤,٨٣٧	٦٦,٤٧٢
١٩١٩	٣,٠٥٥	١,٨٠٦	١٩٣٦	٦,٢٥٢	٢٩,٥٩٥
١٩٢٠	١٤,٢٩٢	٨,٢٢٣	١٩٣٧	١١,٢٥٢	١٠,٦٢٩
١٩٢١	١١٩,٠٣٦	٨,٢٩٤	١٩٣٨	١٩,٧٣٦	١٤,٦٧٥
١٩٢٢	٥٣,٥٢٤	٨,٦٨٥	١٩٣٩	٤٣,٤٥٠	٣١,١٩٥
١٩٢٣	٤٩,٧١٩	٨,١٧٥	١٩٤٠	٣٦,٩٤٥	١٠,٦٤٣
١٩٢٤	٤٩,٩٨٩	١٣,٨٩٢	١٩٤١	٢٣,٧٣٧	٤,٥٩٢
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	٣٤,٣٨٦	١٩٤٢	١٠,٦٠٨	٤,٢٠٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٣,٨٨٥	١٩٤٣	٤,٧٠٥	١٠,٠٦٣
١٩٢٧	١١,٤٨٣	٣,٠٣٤	١٩٤٤	١٥,٥٥٢	
١٩٢٨	١١,٦٣٩	٢,١٧٨	١٩٤٥	١٥,٢٥٩	
١٩٢٩	١٢,٤٧٩	٥,٢٤٩	١٩٤٦	١٨,٧٦٠	
١٩٣٠	١١,٥٢٦	٤,٩٤٤	١٩٤٧	٢٢,٠٩٨	
١٩٣١	٥,٦٩٢	٤,٠٧٥	١٩٤٨	١٧,١٦٥	

ويلاحظ من الجدول السابق أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودى من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ والذين أتوا أساسا من أوربا الشرقية ثم

الوسطى، أى أنها استوعبت حوالى ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود، وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودى فى أوربا الغربية، ونحو ٣٠٠ ألف فى باقى بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والارجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪ ولم يستوطن فى فلسطين سوي ٥٠ ألفا، أى حوالي ٢٪ من مجموع المهاجرين.

وقد استمر الوضع على ذلك فى الفترة ١٩١٥-١٩٣١، أى قبل ظهور هتلر، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥٪ من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودى واستوعبت كندا ٦٪ والارجنتين ١٠٪، واستوعبت بلدان امريكا اللاتينية الأخرى ٩٪، وجنوب افريقيا ٢٪ والبلاد الأخرى ٣٪ ولم يستوطن فى فلسطين سوى ١٥٪ على الرغم من أنه لم تكن توجد أنذاك قيود على الاستيطان فيها.

ولم يحدث أى تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى فى أوربا وامريكا اللاتينية وجنوب افريقيا.

وقد بلغ الاستيطان اليهودى فى فلسطين ذروته فى الفترة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩، حيث استوطن فى فلسطين حوالى ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفا، ولم يستوطن فى الولايات المتحدة سوى ٢٠٪ وقد بلغ عدد المستوطنين الصهاينة فى الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٥، أى فى أربعة أعوام، حوالى ١٤٧.٥٠٢

(١٦٥.٧٠٤ بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوى عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فى فلسطين فى خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠، وفى الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩، هاجر ٧٥.٥١٠ (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦.٠٩٤) وشهدت الفترة بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٨ تحولا طفيفا فى نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودى من مجموع ٣٠٠ ألف، أى ٤٢٪ من مجموع المهاجرين، إلى الولايات المتحدة، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفا أى ٤٠٪ فقط، وقد أدى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية فى فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم، فكأن الفوهرر نجح فى خلال ثمانية أعوام، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا، فى إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمى فى إنجازه فى نصف قرن (١٨٨٢-١٩٣١)، أى أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية، فقد هاجر فى تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودى من وطنهم الأصلى ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين. ومع هذا، لا يمكن انكاردور الصهيونية والاستعمار في خلق هذا الموقف الصهيونى البنيوى، والواقع أن الدول الغربية، بما فى ذلك الولايات المتحدة، أوصدت أبوابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب

ظروف الكساد الاقتصادى. أما الصهاينة، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التى ساهمت فى توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين. وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم.

ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أى نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود الذين هاجروا إليها بسببب عوامل الطرد الحادة فى أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها.

ولعل الاستثناء الأساسى الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين. وفى نفس الفترة، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بعض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم العربى الإسلامى، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فى فلسطين. وعلى أية حال، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضا حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد. والهدف ليس

خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعى. فالعرب اليهود لم تمكنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية، ولا خبراتهم، من الهجرة إلى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعى الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التى يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية، ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك.

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده، أى يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التى أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل. ومن ثم، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوڤيتى تواجه مشاكل عميقة - من المنظور الصهيونى - لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم فى النمسا أو فى أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن، ثم يهود إيران، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة، ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضا

إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا – ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية فى الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفا، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان.

ويدل تدفق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيدا عن «أرض الميعاد» على أن حركيات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح فى طريقها كثيرا من التحيزات العقائدية الاختزالية ولتزويد الكيان الصهيونى بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالى وأغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكيلا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد. وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودى روسى على إسرائيل وليس الملايين التى تحدث عنه الاعلام العالمى أى الغربى والعربى على مدار عشرة أعوام تقريبا، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا

خاصة العناصر الشابة الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها وسيعود النمط القديم ليؤكد نفسه، أى تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، إلى أى أرض ميعاد أخرى تحقق لهم الحراك الاجتماعى.

وبدلا من تسمية الظواهر بأسمائها، تشير الأدبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو إلى العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة».

الدياسبورا الدائمة.

Permament

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لنصف وضع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم، إذ أنه على الرغم من كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم، فأن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين فى المنفى. فالدياسبورا أو الشتات اليهودى مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية وحالة الدياسبورا أو الانتشار هى حالة دائمة بغض النظر عما يحدث فى فلسطين بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، أحيانا ينبع من حركيات لاعلاقة لها بصهيون.

وفيما يلى جدول باعداد أعضاء الجماعات اليهودية، فى فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة نهائية بالفعل.

اعداد اليهود فى فلسطين المحتلة والعالم.

سنة	عددهم فى فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤,٠٠٠	٪ ٠,٣
١٩٠٠	٥٠,٠٠٠	٪ ٠,٥
١٩٢٥	١٢٢,٠٠٠	٪ ٠,٨
١٩٤٠	٤٦٧,٠٠٠	٪ ٢,٨
١٩٤٨/١٠/٥	٦٥٠,٠٠٠	٪ ٥,٧
١٩٥١	١,٤٠٤,٠٠٠	٪ ١٢,٢
١٩٦٥	٢,٢٩٩,٠٠٠	٪ ١٧,١
١٩٧٥	٢,٩٥٩,٠٠٠	٪ ٢٠,٩
١٩٨٠	٣,٢٨٢,٧٠٠	٪ ٢٥
١٩٨٥	٣,٥١٠,٠٠٠	٪ ٢٧

أى أن ربع الشعب اليهودى وحسب قد قرر الاستيطان فى فلسطين مما يعنى أن أغلبيته الساحقة قد أثرت العيش فى «المنفى» على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد فتحت أبوابها على مصراعيها أمام كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى، وأن ارض الميعاد والعودة ليست أرضا للميعاد أو للعودة رغم كل الادعاءات الصهيونية.

هذا الكتاب

●● صدر هذا الكتاب فى منتصف الستينيات، وهو كتاب بالغ الأهمية يعالج جذور القضية الفلسطينية، ويتعامل مع الثابت والمتغير، كتبه الراحل الدكتور جمال حمدان الذى أصبحت كتبه هاديا لمشروع النهضة ونبراساً لأصحاب الوطنية الصادقة.

فمشروع جمال حمدان الفكرى محوره مصر، وتكتسب فلسطين عنده أهمية خاصة، وبالتالى اليهود باعتبارهم المادة البشرية الوافدة إلى فلسطين.

فما يجرى على الساحة السياسية اليوم فى حقيقته هو اعتراف بواقع سياسى فرضته موازين قوى إقليمية وعالمية، وليس اعترافا قائما على أسس تاريخية أو وعود توراتية أو أوامر ربانية.

ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن يحمل أية شبهة تنازل تاريخى من جانب الشعب العربى الفلسطينى، ويؤكد جمال حمدان عن طريق الدراسة العلمية الموثقة إن اليهود ليسوا شعبا واحدا، ويتحرك مسلحا بعقل ثابت وخيال خصب ومعرفة عميقة، ويتابع قضيت ة من التاريخ القديم إلى العصر الحديث.

وقام الدكتور عبد الوهاب المسيرى بتقديم الكتاب، وبرؤية حديثة شاملة، وعالج الفجوة الزمنية بين تاريخ صدور الكتاب وهذه الطبعة بملحق يتناول المعلومات الجديدة.

إنه كتاب لابد أن يقرأ، وأن يكون له مكانة خاصة فى مكتبتك.

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٩٨/٨٣١٣

I.S.B.N 977-01-5758-9

طبعة خاصة بدار الهلال
لمكتبة الأسرة
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



السعر جنيهان

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨